من أجل مجتمع مغربي قارئ

10 دراهم

باهي .. الصحافي والمناضل

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

عدد خاص

مدونة ابو عبدو

سلسلة شراع

كتاب شهري يصدر عن وكالة شراع
لخدمات الإعلام والاتصال

المدير رئيس التحرير : خالد مشبال
لوحة الغلاف : أحمد بن يسف

مركز الإدارة
137 شارع ولي العهد ـ طنجة
الهاتف : 94.42.12
37.39.27
فاكس : 94.42.16

العدد السادس : ربيع الأول 1417 ـ غشت 1996

«شراع»

سلسلة شهرية لنشر ثقافة الإعلام

الثمن : 10 درهم

«من أجل مجتمع مغربي قارئ»

« هذا الرجل النادر ، يجب أن يبـقى منقوشـاً في ذاكرة الأجـيال ، كمادة أساسية ضمن مناهج التعليم العالي » .

أعـز النـــاس ..

من بالغ الصعوبة ، الكتابة بإفاضة وعمق عن صحافي كبير في مستوى محمد باهي ..

ورغم أن المداد سال غزيراً في لحظات الذهول بافتقاده غير المتوقع ، فإن كل ما قرأناه أو سمعناه خلال الشهرين الماضيين ، بأقلام مغاربية ، وعربية ، وإفريقية ، وأوربية .. لم يكن سوى إنطباعات كاوية عن لوعة فراق (أعز الناس)، أثناء إستعداده لخوض تجربة جديدة في تطوير صحافة الحزب ، وفك طوق (الأسلاك الشائكة) من حولها ، لتصبح صحافة رشيقة ، يتهافت على قراءتها جميع المغاربة المتعلمين ..

وبعض الكتابات المتوترة ، لم تحترم - مع شديد الأسف - روح الفقيد العزيز ، فاستغلت هذه المناسبة الحزينة ، لنشر (غسيلها القديم) ..!

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

ـ ... ولعل هذا ما جعل أستاذنا الجليل محمد عابد الجابري ، يتدخل بسرعة ، حسماً لأي تأويل مغرض ...

ثم إن محمد باهي ، أكبر من أن يوصف بزميله (الصحافي العملاق) محمد حسنين هيكل ، اذا وضعنا في الاعتبار ، إعتماد باهي على نفسه في جميع ما يكتب ، واعتماد هيكل على فريق متكامل من الصحفيين المتعاونين، يشتغل بأدوات إعلامية متقدمة ، لجمع المعلومات المطلوبة قبل كتابة مقالاته الأسبوعية ..

وربما لم تنجب الصحافة العربية منذ نشأتها ، كاتبا ملتزماً بقضايا الحرية والوحدة والديمقراطية مثل محمد باهي.. وما عاناه من تشريد في أوطان الغربة ، وتهديد بالإعدام والتصفية في فترات (حالة الاستثناء) المشؤومة ..

وفي انتظار أقلام متمهلة ، تعيد اكتشاف نبوغه الصحافي على ضوء دراسات منهجية لنصوصه السياسية والأدبية ، كم يسعد كل المغاربة ، أن يبادر المعهد العالي للصحافة الى إطلاق إسم محمد باهي على أحد مدرجاته ، مع بداية الموسم الدراسي القادم ...

ـ ... فهذا الرجل النادر ، يجب أن يبقى نقوشا في ذاكرة الأجيال ، كمادة أساسية ضمن مناهج التعليم العالي ..

وتقديرا من أسرة «وكالة شراع» لمكانة محمد باهي الصحافية ، حاولنا جمع كتاباته الجميلة حول «اكتشاف باريس» ، لتشكّل مادة كتاب هذا الشهر .. ولكننا عدلنا عن ذلك مضطرين ومتحسرين ، استجابة لرغبة زوجته الفاضلة التي منحت هذا الامتياز الكبير ، للجنة خاصة بجمع «تراث محمد باهي» المشتت في الصحافة المغاربية والعربية والفرنسية ..

في هذه الحالة الحرجة ، ووفاء لروحه السمحة في ذكرى الأربعين ، كنا أمام إختيارين إثنين :

الأول : تقديم نموذجين فقط من كتابات باهي ، للاستدلال على قوة قلمه في استنطاق قضايا الساعة ، وتحليل مفارقاتها السياسية والحضارية ..

الثاني : إعادة تجميع أجود ما نشر حول فقيدنا العزيز بأقلام أصدقائه وزملائه الصحافيين والأدباء العرب ، ليكون هذا العدد الخاص من «سلسلة شراع» ، وثيقة مرجعية في كتابات المواساة والحزن ..

ـ ... والاعتراف بالجميل ..

وتبقى ريشة المبدع الكبير أحمد بن يسف ، أهم ما يميز هذا العدد الخاص حول الكاتب الصحافي المناضل محمد باهي ..

صديقنا بن يسف رسم هذا الرجل النادر بنبض القلب ، فكانت لوحته الرائعة عن باهي تعبيراً فاتناً ، يترجم متانة التلاحم بين تشكيل الألوان والملامح ، وتشكيل الكلمات والأفكار ..

ـ ... ويترجم أيضا حرارة العناق ، بين ريشة أحمد بن يسف وقلم محمد باهي ..

لوحة غلاف هذا العدد ، ستعرض خلال السنة القادمة بأروقة الفنون التشكيلية في ألمانيا ، ضمن معرض دولي لأحمد بن يسف ، يضم الى جانب لوحة باهي ، لوحات أخرى لشخصيات وطنية بارزة ، كالأمير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي ، والعالمين الجليلين عبد الله گنون والمختار السوسي ، وجلالة الملك الحسن الثاني ، والمفكر المستقبلي المهدي المنجرة ..

أخيراً نعتذر لقرائنا ، إذا كنا مقصرين في حق صديق كبير ، علمنا كيف يجب إحترام شرف مهنة العمل الصحافي ، كما علمنا كيف نناضل في جبهات الحريات العامة وحقوق الإبداع ..؟

باهي ، يا أعز الناس : تقبل هذا العدد المتواضع من «سلسلة شراع» .. ولا شك أنه أجمل هدية نقدمها هذا الشهر ، لفنات واسعة من قرائك الأوفياء ●

* خالد مشبال

باهي .. الصحافي والمناضل

إعداد: وكالة شراع

كتاب الشهر 6 سلسلة شراع

« اللغة الفرنسية حققت في عهد الاستقلالات الوطنية ، أي خلال مدة قصيرة لا تتجاوز ربع قرن ، ما لم تستطع إنجازه من التوسع والانتشار في مدة قرن وثلاثين سنة. »

فـولتيـر والمتنبـي

محمد باهي

لو كـانـت وقـائع الحـروب الطاحنة ، ولكن الصامتة ، التي تخوضها الأمم فيما بينها ، عبر لغاتها ، تدرك من خلال بلاغات تصدرها الأطراف المتحاربة ، لكنا نسمع في كل لحظة أخبارا مذهلة عن الهزائم والإنكسارات التي منيت بها هذه الأمة أو تلك ، أو معلومات عن الانتصارات والمكاسب التي تحققت لغيرها . لكننا لحسن حظنا أو لسوئه ، لا نسمع إلا أصداء ضعيفة عن هذه المواجهة الضخمة الدائرة فوق مسرح مساحته الأرض كلها ، والفضاء المحيط .

إنها أقدم حرب في العالم وأخطرها على الإطلاق ، لكون الأسلحة المستخدمة فيها تؤدي مفعولها ، أي اكتساح

الثقافات ، ومحو الهويات القومية من دون أن يرف جفن للجماعات المعنية بالأمر . خطورة هذه الحرب آتية من أنها تجري أمامنا دون أن نراها ، وتسقط فيها المواقع والإرادات من غير ضجيج أو أثر ملموس ، وتتحول فيها أجيال بكاملها الى الصف الآخر من دون أن تثير همة التصدي والمقاومة .

كل اللغات الكبرى ومن ضمنها العربية ، تخوض اليوم هذه الحرب غير المعلنة : الإنكليزية تخوضها ضد الفرنسية في عقر دار هذه الأخيرة وفوق مسرح العالم ، والإسبانية تشنها ضد الإنكليزية والفرنسية في أمريكا اللاتينية ، والبرتغالية تساجل الإسبانية في البرازيل ، والروسية تقارع الجميع في أوربا الشرقية ، وتناوش طلائعها اللغات الأخرى في بعض البلدان الإفريقية والآسيوية .

معركة اللغة العربية اليوم تدور أساسا مع الفرنسية في الشمال الإفريقي . إنها حرب المتنبي ضد فولتير .

برغم كل الجهود التي بذلتها الحكومات في الأقطار الأربعة : (تونس ، الجزائر ، المغرب وموريتانيا) ، منذ الإستقلال إلى اليوم في مجال تعميم التعليم وتعريب الإبتدائي والثانوي مبدئيا ، وجزء من التعليم العالي ،

برغم ذلك كله لا يمكن القـول بأن العـربيـة وصلت نقطة اللاعودة في صراعها مع الفرنسية .

اللغة الفرنسية حققت في عهد الإستقلالات الوطنية ، أي خلال مدة قصيرة لا تتجاوز ربع قرن ، ما لم تستطع إنجازه من التوسع والإنتشار في مدة قرن وثلاثين سنة من الادارة المباشرة للجزائر ، وثمانين سنة من احتلال تونس ، ونصف قرن من حماية المغرب وإلحاق موريتانيا . وكل التوقعات المتصلة بمستقبل الثقافة والتعليـم تشير الى أن السباق الجاري حاليا بين اللغتين من أجل بناء الفضاء العقلي ، وصياغة الذهنيات في الشمال الإفريقي ، يسير حتى الآن لصالح لغة فولتير .

يقول غابريال دوبراي ، الرئيس السابق للجنة العليا للغة الفرنسية ، والرئيس الحالي لـ «اللجنة الوطنية للحريات والإتصال» المشرفة على أجهزة الإعلام الفرنسية (محطات الإذاعة والتلفزة التابعة للدولة) ، في كتاب أصدره خلال شهر كانون الثاني (يناير) الماضي بعنوان : «الفرنسية، من أجل أن تحيا » .

«من اليوم وحتى سنة 2000 سوف ينمو عدد الناطقين بالفرنسية بمعدل 267 في المائة في إفريقيا السوداء ،

وبمعدل 160 بالمائة في بلاد المغرب (تونس ، الجزائر ، المغرب ، موريتانيا) . إنه انفجار يعود الى الديمغرافيا وإلى التقدم في التمدرس . وفي سنة 1980 كان الفرنسيون يمثلون 52 في المائة من الناطقين بالفرنسية ، أما في سنة 2000 فإن الأفارقة سوف يحتلون هذه المكانة لينخفض عدد الفرنسيين الى نسة 34 في المائة . إنه انقلاب جذري لا يقتصر على الفرنسية وحدها ولعله يكون مفيدا لنا اذا عرفنا كيف نستعمله . ويكفي أن نتصور ، وهو أمر غير سهل ، أن عدد الناطقين بالفرنسية في القارة الإفريقية يمكن أن يصل الى 2500 مليون ، وأن ثلثي النشاط الثقافي سوف يأتيان من العالم الثالث ... » .

يأتي الرئيس السابق للجنة العليا للغة الفرنسية ، وهي هيئة رسمية تقع دستوريا تحت إشراف رئيس الدولة ، يأتي بهذه الأرقام ليدق ناقوس الخطر بالنسبة إلى مستقبل الفرنسية لغة للبحث العلمي ، ويورد معلومات عن تراجعها أمام الانكليزية في هذا المجال . إنها تتقدم عندنا بخطى عملاقة، وتنتكس على جبهة العلوم في موطنها الأصلي .

بدأ الإنحطاط منذ حقبة الخمسينات عندما فقدت المجلات العلمية الفرنسية سمعتها أمام منافساتها

الأمريكيات المزدهرات ، ثم تفاقم منذ عشر سنوات بعدما جرى تشجيع الباحثين الفرنسيين على نشر أعمالهم باللغة الإنكليزية . من خلال المعطيات التي أوردها غابريال دوبري في كتابه ، نكتشف أن 80 في المائة من الباحثين باللغة الفرنسية ، في قطاعات العلوم الدقيقة ، يذيعون بحوثهم بلغة شكسبير ، وأن نصف المراجع في كلية «أو رساي» للعلوم إنكليزي ، وأن دائرة الوثائق العلمية والتقنية في المركز القومي للبحوث العلمية تتوفر على 15 ألف مطبوعة ودورية، لا تتجاوز حصة اللغة الفرنسية فيها ما بين 6 و 7 في المائة ، يضاف الى هذا أن الجامعات الفرنسية والمركز القومي للبحوث العلمية ، والمعهد الوطني للصحة والأبحاث الطبية ، وعدة هيئات رسمية أخرى ، تنظم سنويا عشرات المؤتمرات واللقاءات التي يقدم فيها الباحثون الفرنسيون مداخلاتهم بالانكليزية ، بينما يحرص عدد من الأساتذة الأجانب (الكنديون والسويسريون والبلجيكيون والمغاربة والأفارقة) على أداء مساهمتهم بلغة فولتير ، حتى في المؤتمرات الخارجية يفضل الباحثون الفرنسيون الكلام بالإنكليزية ، علما أن الفرنسية مقررة سلفا ، كلغة عمل في مثل هذه التظاهرات .

هكذا نجد أن النقاش الذي يثور من وقت الى آخر بين بعض مثقفينا وعلمائنا ، حول موضوع اللغة العربية وعلاقتها بالعلوم وبالحياة العصرية ، يجري ما يشبه أو ما يقرب منه بين المبدعين الفرنسيين أيضا ، مع فارق جوهري هو أن أي واحد من هؤلاء الفرنسيين لا يناقش مسألة جدوى اللغة الفرنسية أو صلاحيتها . إنهم ، أي الفرنسيون الذين يتقنون الإنكليزية، يعترفون بأنهم مكرهون على استعمالها ، لكون ثلاثة أرباع مصادرهم عن المعلومات آتية منها ، وهم عندما ينشرون بها ، فإنما يبحثون عن الشهرة والنفوذ بهدف الدفاع عن مكانة فرنسا في العالم . في كلام آخر ينشر الفرنسي مباشرة بالإنكليزية رغبة منه في توسيع إشعاع بلده ، وكسب أسواق وفضاءات جديدة للمخترعات والأفكار والمكتشفات الفرنسية .

بالطبع هناك من يرون أن نشر أعمالهم الإنكليزية في المجلات الأمريكية ، يمنحهم مصداقية قد لا يجدونها داخل فضائهم الثقافي الأصلي ، مثل ذلك الباحث «الشاطر» الذي نشر دراسة علمية ضمنها عمدا أخطاء فادحة ، ثم نبشها وفضحها بسرعة في الولايات المتحدة ، وأسفر ذلك عن ورود اسم الكاتب عشر مرات في فهرس المصادر الأمريكية

المرموقة . إنه ضرب من اقتحام الشهرة عن طريق الخطأ المقصود . لكن هذه الحيل كلها لم ترق قط الى مستوى اتهام اللغة الفرنسية بأنها أقل دقة من منافستها الإنكليزية ، ولم تدفع الذين يمارسونها إلى الدعوة إلى اختراع لغة جديدة تعتمد على لهجات أهل «بريتانيا» و «النورماندي» و «الأوفر» . وإذا تذكرنا أن غالبية المصطلحات العلمية المستعملة اليوم في اللغات الأوروبية ، هي ذات أصول يونانية أو لاتينية، أدركنا الطابع النسبي للإشكالية المطروحة اليوم ، على كل اللغات الحية الكبرى ومن ضمنها لغة المتنبي . في تعبير آخر ، ليست العربية هي وحدها التي تجابه ضرورات التلاؤم مع العصر ، ولا هي وحدها المتخلفة في بعض المجالات عن مسايرة التطورات الصاعقة التي نعيشها .

إن إدراك هذه الإشكالية موجود بالدرجة نفسها عند اليمين وعند اليسار في فرنسا . لقد اتخذت حكومة ريمون بار الليبرالية اليمينية (1976) ، في عهد الرئيس جيسكار ديستان، قرارا بقطع التمويل عن أي مؤتمر ينظم في فرنسا من طرف هيئات رسمية تابعة للدولة ، لا تكون الفرنسية لغته . ولما وصل اليسار الى السلطة (1981) كان من جملة القرارات الأولى التي اتخذها ، قرار بتوسيع

اللجنة العليا للغة الفرنسية ، وبضم علماء كبار إليها (مثل ألفريد كاستلر الحائزة على جائزة نوبل) تعزيزاً لمكانتها في العلوم وتطهيرا لها من الدخيل والوحشي ، كما قام بتأكيد قرار حجب التمويل عن أي مشروع أو مؤتمر أو اجتماع لا تكون الفرنسية أداته الوحيدة .

يحدث ذلك كله في الوقت الذي ترتفع فيه من حين الى آخر في المغرب العربي (كاتب ياسين مؤخرا) ، أصوات تدعونا الى إدخال البربرية الى التعليم ، وإلى التخلي عن العربية الفصحى ، وإحلال اللهجات الدارجة مكانها .! ●

« إذا عكف المؤرخون على كتابة تاريخ العلاقات المغربية الجزائرية ، فسوف يجدون وجه السيد عبد الحميد المهري ، ماثلاً أمامهم باستمرار. »

مقدمات خريف الغضب

محمد باهي

مساء السبت 28 أكتوبر 1988 ، استمع الجزائريون إلى ما وصفه جزائري كبير بأنه «رجة سياسية جديدة » .

لقد أعلن بيان صادر عن رئاسة الجمهورية ، عن اقص . السيد محمد الشريف مساعدية، الرجل الثاني في الحزب الحاكم ، من منصبه ، كأمين للأمانة الدائمة للجنة المركزية ، لجبهة التحرير الوطني الجزائري ، وتعيين السيد عبد الحميد المهري ، سفير الجزائر في الرباط ، خلفا

له على رأس لجنة وطنية مكلفة بتحضير المؤتمر السادس للجبهة .

ومساء الإثنين 28 نوفمبر شاهد النظارة الجزائريون ، أعضاء المؤتمر السادس ، يقفون ويصفقون بحرارة وحماس ، عند سماعهم لإسم محمد الشريف مساعدية ، ضمن أعضاء اللجنة المركزية الجديدة .

نفس التصفيق استقبل به أيضا إسم الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي وزير الخارجية السابق ، الذي كان قد أبعد من التشكيلة الوزارية الأخيرة .

بين « الرجة السياسية » التي يرمز إليها بيان الرئاسة « والهزة العاطفية » التي ترجمها وقوف المؤتمرين وتصفيقهم ، شهر واحد ، اختفى أثناءه الرجل عن الأضواء ولازم بيته ، وكان موضوعا لشائعات متناقضة ، دفعت عددا من المراقبين المولعين باصدار الأحكام القاطعة إلى الإسراع بدفنه السياسي ، ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يختفي فيها الرجل من المسرح السياسي بصورة مشهدية ليعود إليه بطريقة مثيرة . وقد كانت عودته الأخيرة ، من خلال عضوية اللجنة المركزية ، تساوي في ما تطرحه من تساؤلات وتغري به من تحليل ، لحظة

« خسوفه » القصيرة ، ولا يمكن فهم ظاهرتي « الخسوف » و « البزوغ » الأخيرتين ، في مسيرة محمد الشريف مساعدية فطرية سياسية إلا إذا استحضرنا في الذاكرة ، أن التطورات الأخيرة ، لها جذورها وتشبعاتها ، في تاريخ الثورة الجزائرية ، ليس محمد الشريف مساعدية فطرية سياسية، نبتت من آخر « مطرة » وذبلت فجأة ، بل هو شجرة متينة ، ثابتة الأصول ، في التربة السياسية للجزائر .

إن هذا الرجل البالغ من العمر أربعة وستين عاما ، واحد من أفراد الرعيل الأول الذي حمل السلاح ، في صفوف جيش التحرير الوطني غداة اندلاع ثورة الأول من نوفمبر 1954. ومنذ أن غادر مدينته الجبلية ، سوق أهراس ، بالقرب من الحدود التونسية ، والتحق بصفوف المقاتلين ، في الأيام الأولى للثورة ، إلى غاية مساء السبت 28 أكتوبر 1988 الذي تم فيه إبعاده من موقعه ، وإلى غاية مساء الإثنين 28 نوفمبر ، نهض المؤتمرون ليصفقوا له أكثر مما صفقوا للشاذلي بن جديد ، وهو في قلب المراحل الحاسمة من تاريخ الجزائر الحديث ، بل من تاريخ المغرب العربي كله .

المرحلة الحاسمة الأولى في تاريخ الجزائر بعد قيام ثورة

أول نوفمبر 1954 ، حدثت عام 1959 ، وكانت لها صلة وثيقة بأوضاع المغرب العربي ، و ماتزال وقائعها غير مكتوبة ، بل ما تزال مخزونة في صدور الذين عاشوها من أبناء الجزائر والمغرب وتونس . وعلى الرغم من أن ثلاثين سنة تقريبا تفصل بيننا وبينها ، فإن بامكاننا أن ننفض عنها بعض الغبار، لاستبانة ملامحها فيما يجري الآن بالمغرب العربي الأوسط ، ولا يحمل هذا الغوص السريع في الماضي أي مسعى فكري تعسفي ، لأنه يتصل اتصالا عميقا ، حيا بنسيج الثوابت والمتغيرات الجغرافية والتاريخية . واختصارا للتحليل الاستراتيجي النظري ، نقول بسرعة : إن مرحلة 1959 ، التي كان السيد محمد الشريف مساعدية واحدا من صناعها ، تطرح نفس الإشكالية التي تعيدها أحداث خريف الغضب الجزائري وتحالفاتها الإقليمية والدولية . وفي كلام مختلف ، عاشت الثورة الجزائرية ، قبل ثلاثين سنة ، قضية داخلية ، كانت لها امتداداتها العربية ، وشارك فيها محمد الشريف مساعدية ، مثل ما ساهم ، من موقع مختلف هذه المرة ، في مقدمات خريف الغضب ، بدوافعه الداخلية وبمضاعفاته الاقليمية والدولية .

في تلك السنة (1959) ، وبعد سلسلة من الإتصالات

والمناقشات داخل الولايات ، اجتمع عدد من ضباط جيش التحرير ، بينهم محمد الشريف مساعدية وعبد الله بلهوشات (رئيس هيئة الأركان السابق والمستشار العسكري للرئيس الشاذلي بن جديد) وأحمد دراية الذي شغل بالتوالي (بعد الإستقلال) منصب قائد فرق الأمن الوطني ، ثم مدير الأمن الوطني ، ثم وزارة النقل ، فسفارة الجزائر في لشبونة ، اجتمعوا بمدينة الكاف التونسية وقرروا اسقاط الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، برئاسة فرحات عباس . ونحن نذكر أن تلك الحركة الإنقلابية الفاشلة التي أسمتها الصحف الفرنسية « المؤامرة الناصرية ضد الثورة الجزائرية » ، كانت سببا في انتقال الحكومة المؤقتة الجزائرية من القاهرة إلى تونس .

وبالفعل ، فإن تلك الإجتماعات السرية التي جرت بمدينة الكاف التونسية ، حصلت بالتنسيق مع شخصيات أخرى من المغرب العربي ، في مقدمتها الأمير عبد الكريم الخطابي ، قائد ثورة الريف التاريخية ، والمعارض الأول للتحالف الذي كان قائما آنذاك بين الحركة الوطنية ممثلة في حزب الإستقلال ، وبين القصر الملكي ، والسيد صالح بن يوسف الأمين العام السابق لحزب الدستور التونسي والمعارض الأول

للرئيس الحبيب بورقيبة . وكان لتلك الحركة الإنقلابية التي أحبطت في المهد هدفان : داخلي وإقليمي . أما الهدف الداخلي ، فيتلخص في إسقاط السياسيين المحترفين من قيادة الثورة من أجل إسنادها إلى عناصر أكثر جذرية ، وأما الهدف الإقليمي ، فهو تحقيق وحدة المغرب العربي حول الثورة الجزائرية ، وإعلان شكل من أشكال الوحدة ، مع الجمهورية العربية المتحدة التي ضمت في ذلك الوقت ، كلا من سوريا ومصر ، تحت زعامة جمال عبد الناصر .

كانت تلك « المؤامرة الناصرية » ضد الثورة الجزائرية ، وفقا لتعبير الصحافة الفرنسية الصادرة في تلك الفترة ، سببا في ظهور شخصية أخرى على المسرح السياسي الجزائري ، هي العقيد هواري بومدين ، الذي سيصبح فيها بعد رئيسا لأركان الجيش الجزائري (1959 ـ 1962) ، ثم نائبا لرئيس الحكومة ووزيرا للدفاع الوطني في عهد الرئيس أحمد بن بلة ، وأخيرا رئيسا للدولة ، بدءا من إطاحته بنظام أحمد بن بلة (19 يونيو 1965) حتى وفاته في شهر دسمبر 1978 . وكانت « حركة الكاف » ، سببا في تعرف هواري بومدين (واسمه الحقيقي محمد بوخروبة) على محمد الشريف مساعدية ، كما كانت أصل تلك العلاقة المعقدة بين الرجلين .

هواري بومـيـدين ، كـان يومـهـا مـسـؤولا عن الولاية الخامسة ، أي عن وحدات جيش التحرير الوطني الجزائري التي توجد قيادتها بمدينة وجدة ، قرب الحدود الجزائرية المغربية ، وإلى غاية ذلك التاريخ ، لم يسمع عنه العالم الخارجي شيئا كثيرا ، لقد كان واحدا من مئات المناضلين المغمورين الذين كلفتهم القيادة بمسؤولية المناطق الحدودية . كان هواري بومدين ، طالبا في الأزهر ، وقد اختاره أحمد بن بلة ، ليقوم بمهمة عامل البدالة الهاتفية بمكتب المغرب العربي في القاهرة ، ثم أرسل مرافقا لشحنة أسلحة مصرية ، نقلتها باخرة تهريب يونانية إلى شواطئ منطقة الحماية الإسبانية ، على أن تستلمها المقاومة المغربية ، وتتقاسمها مع الجزائريين . وقد جنحت الباخرة في عرض ساحل مدينة الناظور المغربية . وقد نزل أو أنزل منها الركاب والأسلحة على أكتاف المناضلين المغاربة . هواري بومدين ، الذي لم يكن يحسن السباحة نزل إلى البر على أكتاف مقاوم مغربي ، هو السيد سعيد بونعيلات . وقد التحق بومدين ، بجهاز السيد عبد الحفيظ بوصوف ، الذي كان قد خلف المرحوم محمد العربي بن مهيدي ، في قيادة الولاية الخامسة ، وحين تألفت الحكومة المؤقتة (سبتمبر 1958)

وأصبح عبد الحفيظ بوصوف وزيرا فيها ، عين هواري بومدين خلفا له في قيادة الولاية الخامسة .

ثم قامت حركة الكاف ضد الحكومة المؤقتة ، وقرر « الثلاثي الفولاذي » الحاكم آنذاك في صفوف الجبهة والمؤلف من عبد الحفيظ وزير التسليح والمواصلات ، مسؤول الإستخبارات ، وكريم بلقاسم وزير الحرب ، والأخضر بن طوبال وزير الداخلية ، تكوين محكمة عسكرية لمحاكمة « المتآمرين » . ووقع الإختيار على الرائد هواري بومدين لرئاسة تلك المحكمة التي عقدت جلساتها المغلقة بمدينة غارديماو التونسية وأصدرت أحكاما بالإعدام في حق الرؤوس المدبرة (نفذ بعضها فورا في شخص كل من الرائد أحمد العموري والرائد مصطفى الأكحل من الولاية الأولى) وأحكاما تتراوح بين المؤبد وبضع سنوات على العناصر المشاركة أو المتواطئة .

محمد الشريف مساعدية كان من بين الذين حكموا ببضع سنوات ، لكنه لم يقض في المعتقل سوى فترة قصيرة . لقد اتخذت قيادة « الثلاثي الفولاذي » قرارا بترقية هواري بومدين ، بعد تلك المحاكمة ، إلى منصب عقيد ، وأسندت إليه مسؤولية هيئة الأركان العامة للجيش . واختار بومدين

تحويل الأحكام الصادرة بشأن بعض المتهمين ، إلى عقوبات تأديبية ، بدلا من الإحتفاظ بهم في السجن . وفي نطاق تلك العقوبات الانضباطية ، أرسل محمد الشريف مساعدية ، مع آخرين إلى حدود جمهورية مالي الإفريقية لتكوين وحدات مقاتلة على التخوم الشرقية للولاية السادسة (الصحراء الجزائرية) . وحين استقلت الجزائر في عام 1962 ، خلع الرجل لباسه العسكري ، وعاد إلى الحياة المدنية حيث انتخب نائبا في البرلمان الأول وعضوا في اللجنة المركزية في مؤتمر ربيع 1964 .

وعلى الرغم من أن هواري بومدين ، بعد إطاحته بنظام الرئيس أحمد بن بلة (19 يونيو 1965) ، بادر بإسناد مسؤولية « الإيديولوجيا والإعلام » في الحزب إلى محمد الشريف مساعدية ، فإن ذكرى « المؤامرة والمحاكمة » ، بقيت حاجزا نفسيا بينهما ، سيما وأن الظروف جعلت مساعدية يبدو ، في عهد مابعد بن بلة ، وكأنه الناطق باسم كتلة « المتآمرين السابقين » . لقد كان مجلس الثورة الذي شكل بعد تنحية أحمد بن بلة ، يضم عددا من الذين أصدر بومدين في حقهم أحكاما قاسية ، مثل أحمد دراية ، عبد الله بلهوشات ، والطاهر الزبيري ، وكان مساعدية ،

الذي لم يكن عضوا في مجلس الثورة ، يظهر بحكم موقعه الجديد ، وكأنه المعبر غير الرسمي عن كتلة الشرق ، مقابل ماكان يسمى « مجموعة وجدة » . لذلك ، سوف يبقى محمد الشريف مساعدية في « الظل » طوال فترة البومدينية التي لم يكن للحزب فيها دور حقيقي ، ولن يبدأ صعوده الحقيقي إلا في عهد الشاذلي بن جديد . وخلال تلك الفترة الإنتقالية أسند بومدين مسؤولية « إعادة هيكة الحزب » على التوالي إلى شخصيتين من « مجموعة وجدة » ، هما السيد شريف بلقاسم الذي تولى منصب الأمانة التنفيذية ، ثم قايد أحمد الذي حمل في أيامه صفة « مسؤول الحزب » . وحين قرر بومدين ، في الأيام الأخيرة من حكمه ، إعادة الإعتبار للحزب ، لم يسند المنصب القيادي إلى مساعدية ، وإنما أسنده إلى العقيد محمد الصالح اليحياوي .

ولأن هذا الأخير ، بدا غداة وفاة رئيس مجلس قيادة الثورة (28 دسمبر 1978) وكأنه أحد المرشحين للخلافة ، وصار قطبا حقيقيا فيما بعد ، فقد تم إبعاده (في شهر يوليو 1980) أي أثناء المؤتمر الثاني الذي عقدته الجبهة بعد غياب هواري بومدين . في ذلك المؤتمر عين محمد الشريف مساعدية مسؤولا للأمانة الدائمة للجنة

المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني ، وأدخل في ذات الوقت تعديل هام على النظام الداخلي ، ينص على أن تكون قيادة المنظمات الجماهيرية من نصيب أعضاء الحزب الحاكم .

بدءا من ذلك المؤتمر أصبح محمد الشريف مساعدية ، الرجل الثاني رسميا في الجزائر ، بل الرجل الأول والمتصرف الأول حقا في الحزب . ولهذا الصعود أسباب عديدة ، ستكون لها مضاعفات متشعبة وعميقة برزت في خريف الغضب الجزائري الأخير . وأول هذه الأسباب ، أن الرئيس الشاذلي بن جديد ، لا ينتمي إلى ما يمكن أن نسميه « المنظومة البوصوفية » ، وقد سعى منذ البداية إلى تكريس الإختصاص وتوزيع المسؤوليات ، دون أن يدرك أن القوى الإجتماعية والسياسية ، المتصارعة ، سوف تحول الحزب إلى أداة للدفاع عن مصالحها واختياراتها ومطامحها . الشاذلي بن جديد ، هو دستوريا ونظاميا ، الأمين العام للحزب ، ولكن مجيئه من خارج « المنظومة البوصوفية » ، ثم مشغولياته على رأس الدولة ، واهتمامه المعتدل جدا ، حتى لا نقول المنعدم تماما بمتابعة الملفات ، مضافة إليها ثقته في الآخرين ، كلها عوامل جعلته يترك حرية متزايدة لمحمد الشريف مساعدية في إدارة شؤون الحزب

الذي تحول تدريجيا إلى دولة حقيقية داخل الدولة . وسوف يكون الرمز البالغ الدلالة لوزن الحزب في الحياة العامة ، هو إفراغ بناية الحكومة العامة السابقة من عدة وزارات بمناسبة الذكرى الثلاثين (1984) لقيام ثورة أول نوفمبر (1954) ، لتحويلها إلى مقر مركزي لجبهة التحرير الوطني ، والبناية التي أصبح الحزب موجودا بها ، هي المقر السابق للحكومة العامة ، وهي توجد في موقع استراتيجي بقلب العاصمة ، وكتلتها المعمارية العصرية المنتصبة بين حي القصبة والمدينة الجديدة ومدارجها الرخامية وساحتها المعبدة ، تجعل منها رمزا حقيقيا للسلطة .

ومقر الرئاسة الموجود في حي المرادية ، في الطرف الجنوبي الغربي من العاصمة ، يبدو متواضعا جدا ، قياسا إلى مبنى الحزب .

ورغم أن السيد محمد الشريف مساعدية بدأ ممارسة مسؤولياته على رأس جهاز الحزب بتصفية المنظمات الجماهيرية، أي الإتحاد العام للعمال الجزائريين ، والإتحاد الوطني للشبيبة الجزائرية ، واتحاد الكتاب والمترجمين ، واتحاد الأطباء ، واتحاد الفلاحين ، من العناصر التي توصف عادة بأنها يسارية أو متطرفة ، ووضع بدلا منهم قيادات

أكثر ولاء للجبهة التاريخية في المواقع التوجيهية ، رغم ذلك كله ، فعندما بدأ النقاش مجددا (خلال سنتي 1985 - 1986) حول « إثراء الميثاق الوطني » (الذي صدر عام 1976) ، ظهر محمد الشريف مساعدية وكأنه قطب المعارضات المناهضة للاصلاحات الاقتصادية والإجتماعية والسياسية التي بدا أن الرئيس الشاذلي بن جديد ، يريد إدخالها على المؤسسات . هكذا نجده يعارض فكرة تمليك الأراضي للعمال الزراعيين ، ويعتبرها بمثابة تصفية للقطاع الاشتراكي في الزراعة ، كما نراه يناهض فكرة إعادة هيكلة الشركات الصناعية الكبرى ، ومنحها المزيد من الإستقلال في الإنتاج والتمويل ، وفي التعامل مع الأسواق الخارجية ، ويعتبرها مسًا عميقا بالتجربة الإشتراكية ، إضافة إلى معارضته لمبدأ السماح بتكوين منظمة مستقلة عن الحزب للدفاع عن حقوق الإنسان ، حتى بدا للمراقبين وكأنه القطب الآخر في النظام .

أما في مجال السياسة الخارجية ، والسياسة الإقليمية العربية بالتحديد ، فسوف يظهر محمد الشريف مساعدية ، وكأنه يملك خطابا آخر ، وسوف يقول محمد الشريف مساعدية في أحد لقاءاته مع القادة التونسيين ،

بل سوف يعلن لهؤلاء المسؤولين بصراحة « إن الإتجاه الذي تسيرون فيه سيقودكم ويقودنا جميعا إلى الكارثة » ، وسوف يدلي بتصريحات صحفية يعارض فيها « الإعتراف بإسرائيل » ، في وقت كان يخيل فيه للمراقبين أن الرئيس الشاذلي بن جديد ، كان ينتهج خطاً آخر ، يستند إلى الإنفتاح الإقليمي ، أي الإنسجام مع الوضع العربي العام ، استكمالا لخطه الداخلي المعتدل .

وكعادته لم يبادر الشاذلي بن جديد إلى فتح المعركة مع مسؤول الحزب ، الذي تحول بالتدريج إلى وجه آخر ، يسترعي خطابه وتحركه السياسي انتباه المراقبين ، كما لو كان يمثل احتمالا آخر مرشحا لحسم النقاش في اتجاه جديد . لم يفعل الشاذلي بن جديد شيئا من ذلك ، وإنما حاول أن يسوي ماصار يعرف في السنوات الأخيرة بمشكلة « مساعدية » ، من خلال إشراكه أكثر في صنع القرار السياسي العربي خاصة ، ثم دفعه للمساهمة في تطبيقه . هكذا رأينا مساعدية ، خلال السنتين الماضيتين يقوم بعدة جولات مشرقية ومغربية ، أصبح أثناءها المحاور الأول للفلسطينيين والليبيين ، والمخاطب الأول للملك الحسن الثاني في شأن تطبيع العلاقات الثنائية . إنما في ذات الوقت

أعطانا الرجل الإنطباع ، بأنه يقف وراء ما سمي بـ « التقارب الإستراتيجي » بين الجزائر وليبيا ، وهو تقارب بدا ، خلال الصيف الماضي ، وكأنه وشيك التحول إلى وحدة إندماجية ، أو فديرالية على الأقل ، كان يفترض أن تطرح للمناقشة مع بداية خريف هذه السنة ، قبل أن يجري بشأنها إستفتاء عام في شهر نوفمبر . ثم جاء خريف الغضب الجزائري ، ولم يكن مطروحا في جدول الأعمال ، غير المعطيات والأولويات والمشغوليات ، وكان من نتائجه الأولى إبعاد محمد الشريف مساعدية من منصبه ، وإجراء استفتاء بالفعل ، لا من أجل الوحدة الليبية الجزائرية ، وإنما للموافقة على تعديل دستوري يصبح رئيس الحكومة بموجبه مسؤولا أمام مجلس النواب .

إقصاء مساعدية من منصبه ، جاء غداة مشاركته في اجتماعات اللجان المغاربية المختلطة ، وعودته من جديد إلى الساحة عبر عضوية اللجنة المركزية ، أتت هي الأخرى ، في ختام المؤتمر السادس ، تتويجا لسلسلة من المساومات والتنازلات في قمة القيادة الجزائرية . ويقال إن الرئيس الشاذلي بن جديد ، قبل مشاركة محمد الشريف مساعدية في المؤتمر ، وكذلك حضور الدكتور طالب الإبراهيمي وزير

الخارجية وعضو المكتب السياسي السابق ، اشترط أثناءها أن لا يتحدث الإثنان أمام المؤتمرين ، مقابل وعد بتسليمهم مسؤوليات جديدة .

الوجه الجديد ، أي السيد عبد الحميد المهري الذي حل محل محمد الشريف مساعدية أولا في الأمانة الدائمة ورئاسة اللجنة الوطنية للإعداد لمؤتمر الحزب ، ثم صار أمينا عاما للحزب ، بعد المؤتمر ، ينتمي مثل سابقه إلى الرعيل الأول من قادة الحركة الوطنية . وهو بحكم سنه أيضا من نفس الجيل ، وبحكم مولده (وادي الزناتي) من المنطقة الجغرافية إياها ، أي من الشمال القسنطيني ، مهد الحركة الوطنية وموطن غالبية قيادات الجيش والجبهة والدولة .

وبين عبد الحميد المهري ومحمد الشريف مساعدية أوجه تشابه وأوجه خلاف كثيرة ، وبينهما بالخصوص ما يجوز لنا أن نسميه البعد المغربي للثورة الجزائرية . كلاهما ، مثلا ، زيتونيان ، أي أنهما درسا في جامعة الزيتونة التونسية . وقدكان محمد الشريف مساعدية مثلا ، مناضلا في حزب الدستور التونسي ، مثل ما كان مسؤولون جزائريون لاحقون ، أعضاء في وقت من الأوقات ، بحزب الإستقلال المغربي .

وعبد الحميد المهري ، مدني بالمعاني المختلفة للتمدن والمدنية ، مارس عمله أول ما مارسه في صفوف حزب الشعب الجزائري ، الذي انبثقت منه النواة الأولى لجبهة التحرير الوطني . وكان البعد العربي، المشرقي والمغربي ، مظهرا مبكرا من مظاهر التزامه السياسي .

لقد درس الرجل اللغة العربية في جامعة الزيتونة ، وتولى الإشراف على صحافة حزب الشعب الصادرة باللغة العربية . وحين قامت الثورة المسلحة ، كان من أوائل قادة حزب الشعب الذين التحقوا بالجبهة ، وقد اختارته قيادة الجبهة ليمثلها في دمشق ، واختاره المناضلون ليكون عضوا في المجلس الوطني للثورة ، وهو الهيئة العليا في الجبهة . كان مجلس الثورة ، هو برلمان الجزائر في أيام الكفاح المسلح . إنه شبيه بالمجلس الوطني الفلسطيني اليوم . وكان عبد الحميد المهري أمين سر هذا المجلس . ولذلك فإن الذين يراجعون وثائق الثورة الجزائرية يجدون فيها نصا صدر في التاسع من سبتمبر 1958 ، على إثر سلسلة من الإجتماعات عقدها المسؤولون الجزائريون بالقاهرة ، وأصدروا فيها بيانا وقعه كل من فرحات عباس وعبد الحميد المهري ، يعلن عن إتخاذ قرار بتشكيل الحكومة المؤقتة للجمهورية

الجزائرية . وقد تم تشكيل تلك الحكومة في الثامن عشر من نفس الشهر ، وتولى فيها عبد الحميد المهري منصب وزير الشؤون الثقافية والإجتماعية . خلال تلك الفترة الممتدة من إعلان الحكومة المؤقتة ، في كل من القاهرة ودمشق وتونس و الرباط ، حتى إعلان استقلال الجزائر (في الخامس من يوليو 1962) سوف يظل عبد الحميد المهري ، يعمل في صمت ، بعيدا عن الأضواء ، على حل مشاكل الطلاب واللاجئين الجزائريين ، وسوف يعمل عنصرا موحدا ومقربا للآراء فيما بين الكتل المتنافسة داخل الجبهة . لقد حاول بالخصوص أن يمنع ذلك الإنفجار الذي حصل في آخر اجتماع عقده المجلس الوطني في طرابلس (ربيع 1962) قبل إعلان الإستقلال ، بين الحكومة المؤقتة من جهة ، وهواري بومدين وبن بلة من جهة أخرى . حاول ولكنه أخفق في محاولته ودخلت القيادات الجزائرية ، إلى البلاد ، وهي ممزقة ، متصارعه تدعي كل واحدة منها المشروعية .

دخلت الحكومة المؤقتة بزعامة الدكتور يوسف بن خدة إلى الجزائر العاصمة ، بعد أن اتخذت قرارا إداريا من مكاتبها بتونس بعزل قيادة الجيش ، ودخل أحمد بن بلة من الحدود المغربية ، إلى مدينة تلمسان ، وتسلل هواري بومدين

ومساعدوه من الحدود التونسية هربا من أنصار الحكومة المؤقتة ، والتحقوا بتلمسان ، وكانت أزمة الصيف الشهيرة التي انتهت بتفكك الحكومة المؤقتة ، وبانتصار التحالف بين الثنائي هواري بومدين وأحمد بن بلة عليها ، وقد فضل عبد الحميد المهري ، خلال العهدين السابقين ، أي عهد أحمد بن بلة (1962 ـ 1965) وعهد هواري بومدين (1965 ـ 1978) الإبتعاد عن الأضواء ، والإبتعاد عن الإزدحام ، واختار أن يشارك في ذلك العمل الضخم الذي سيعطي للثورة الجزائرية نفسها الثاني . وأقول العمل الضخم بحروف الجلالة ، لأنه ترك أثرا واسعا ستستمر مضاعفاته العميقة تفعل فعلها في الأجيال الجزائرية اللاحقة . إنني أقصد هنا تعريب التعليم وتعميمه ودمقرطته . وتلك هي الثورة الجزائرية الثانية التي لا يتحدث الناس عنها كثيرا ، وقد قامت على أكتاف عبد الحميد المهري ، وقد مارسها بصمت وفاعلية . ولابد لي أن أذكر هنا بأن اللغة العربية ، كانت تعتبر لغة أجنبية في المدارس الرسمية أيام الإستعمار الفرنسي ، وأن الدولة الجزائرية حين استعادت استقلالها ، وجدت نفسها أمام شعب أمي يجهل أبسط قواعد لغته الوطنية . كانت اللغة العربية ، قد التجأت خلال المائة

والثلاثين سنة من سياسة الهيمنة المباشرة والكلية ، إلى الكتاتيب والمدارس القرآنية ، وغيبت بالكامل كل ماله صلة بالحياة الحديثة . وكان على الدولة الوطنية الجديدة أن تنهض بمهمة إعادة اللغة العربية إلى موقعها الطبيعي ، انطلاقا من الصفر تقريبا . كان عليها أن تبني في بضع سنوات ما خربه الفرنسيون في قرن وثلث قرن . إنها مهمة هرقلية . وقد كان الجندي المجهول في تلك المعركة ، هو عبد الحميد المهري . وبينما انصرفت الشخصيات السياسية بعد الإستقلال إلى ترتيب أوضاعها أو استمرت في خصوماتها التقليدية ، أو وجدت لنفسها مشغوليات أخرى تُرضي بها طموحاتها في الإثراء أو الوجاهة ، اختار صاحبنا أن يتولى إدارة مدرسة تكوين الأساتذة في بوزريعة ، وعمل على جلب عشرات الأساتذة من المشرق العربي ، خاصة من مصر وسورية والعراق ، ثم نجده ينتقل من إدارة المدرسة العليا ، تحت إلحاح الرئيس هواري بومدين ليتولى منصب الأمين العام لوزارة التربية الوطنية (1970) ، في فترة حرجة ودقيقة من تجربة التعريب ، وسوف يطلق عليه الفرنسيون والمفرنسون بهذه المناسبة إسم « السيد تعريب Monsieur Arabisation » ، وسوف يكون وجوده في ذلك المنصب

حاسما في دفع عملية التعريب خطوات جديدة إلى الأمام ، بل سيكون وصوله إلى الأمانة العامة لوزارة التربية الوطنية بمثابة وصول سياسة التعريب إلى « نقطة اللاعودة » .

لقد كان باستطاعته أن يصبح وزيرا للتربية الوطنية لو أراد ذلك ، ولكنه فضل كما ذكر لنا أحد أصدقائه منصب الأمين العام لكونه أكثر اتصالا بمهمات العمل التربوي . ولن يعود عبد الحميد المهري إلى تحمل المسؤولية السياسية إلا بمناسبة المؤتمر الإستثنائي الذي عقدته جبهة التحرير الوطني (1979) ، بعد وفاة هواري بومدين . لقد دخل في ذلك المؤتمر عضوا في اللجنة المركزية ، وأصبح وزيرا للثقافة والإعلام في نفس السنة ، لكنه غادر الحكومة بسرعة (1980) ، ليصبح مسؤولا عن لجنة الثقافة والإعلام في الحزب .

عام 1984 تم تعيين عبد الحميد المهري سفيرا للجزائر بفرنسا وهو منصب بقي فيه حتى الصيف الماضي ، حين تم نقله إلى الرباط . وللسيد عبد الحميد المهري تاريخ مغربي حافل ، سواء تعلق الأمر بالمغرب الأقصى وحده ، أو بمجمل أقطار المغرب العربي . لقد شارك بصفته وزيرا في الحكومة المؤقتة ، وعضوا بوفد جزائري يرأسه فرحات عباس ، في

الإجتماعات التي عقدتها أحزاب المغرب العربي (حزب الدستور التونسي ، حزب الاستقلال المغربي ، وجبهة التحرير الوطني الجزائري) ، بمدينة طنجة (28 أبريل 1958) ، ووضعت فيه ميثاق وحدة المغرب العربي ، وكان عبد الحميد المهري من محرري ذلك الميثاق الذي بقي حبرا على ورق ، بسبب المشاكل والنزاعات التي قامت خلال ربع القرن الماضي بين قطبيه الرئيسيين : المغرب والجزائر .

عام 1983 ، وبمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لذلك المؤتمر ، وفي أوج احتدام النزاع المغربي الجزائري ، فكر حزب الإستقلال المغربي ، وكان زعيمه السيد محمد بوستة آنذاك وزيرا للخارجية ، في إحياء تلك الذكرى . وكانت لهذه الفكرة علاقة بالوساطة التاريخية التي قام بها حامي الحرمين وأسفرت (فبراير 1982) عن انعقاد أول قمة ثنائية بين الملك الحسن الثاني والرئيس الشاذلي بن جديد .

لقد وجدت فكرة الأمين العام لحزب الإستقلال استحسانا من طرف العاهل المغربي ، الذي يقال أنه أراد أن يقوم من خلالها بـ « جس نبض » القيادة الجزائرية بعد مرور سنة كاملة على لقائه الأول مع الشاذلي بن جديد ، ويبدو أن القيادة الجزائرية تلقت الرسالة المغربية « خمسة على

خمسة » ، إذ أنها بادرت بالموافقة على الاحتفال باليوبيل الفضي لمؤتمر المغرب العربي ، في مدينة طنجة نفسها ، بل أنها بادرت بإرسال وفد برئاسة عبد الحميد المهري . وكان حضور عبد الحميد المهري ، وهو آنذاك مسؤول عن لجنة الثقافة والإعلام في الحزب ، ليشارك في تظاهرة دعا إليها وزير مغربي ، أول اتصال ثنائي شبه رسمي بين الدولتين منذ سنوات ، على هذا المستوى الرفيع . وجاء المهري ومعه فكرة إحياء الذكرى السنوية ، بانتظام ، تناوبا ، بين البلدان الثلاثة تونس والجزائر والمغرب . ووافق المغاربة والتونسيون فورا على الإقتراح . وقد بادر التونسيون بإحياء الذكرى السادسة والعشرين (1984) في عاصمتهم ، ودعوا لحضورها الأحزاب المغربية والجزائرية . ومرة أخرى حضر وفد جزائري بقيادة السيد محمد الشريف مساعدية وعضوية عبد الحميد المهري ، الذي كان قد أصبح في هذه الأثناء سفيرا لبلاده بباريس . وكان الاحتفال الذي جرى في تونس مناسبة لتبادل وجهات النظر بين الحاضرين ، الذين اتفقوا على أن يلتقوا في العام اللاحق لإحياء المناسبة إياها بالجزائر العاصمة . لكن تطور العلاقات المغربية الجزائرية ، حال دون الإحتفال بذكرى مؤتمر طنجة في تلك

السنة (1985) . لقد وجهت الجزائر الدعوات بالفعل ، وحمل عبد الحميد المهري شخصيا نصوص الدعوات الموجهة إلى المغاربة ، وسلمها في باريس لكل من محمد بوستة زعيم حزب الإستقلال ، وعبد الرحيم بوعبيد زعيم الإتحاد الإشتراكي للقوات الشعبية . وقد اعتذر المغاربة عن الحضور إلى الجزائر بسبب التوتر الذي ساد علاقات البلدين في تلك السنة ، وتحديدا بسبب احتدام المعارك العسكرية في الصحراء . وأعاد عبد الحميد المهري الكرّة ، وظل يعيدها إلى أن تمكن من إحضار المغاربة إلى الجزائر في ربيع 1986 .

وقد انتبه المراقبون السياسيون ، آنذاك إلى ذلك الإستقبال الرسمي المتميز الذي خص به الرئيس الشاذلي بن جديد الوفد المغربي ، كما انتبهوا للتغطية الإعلامية التي خصصتها وسائط الإعلام الجزائري لنشاطه ، ورأوا فيها مؤشرا جديا ، إلى أن قطبي المغرب العربي الكبيرين يسيران بخطوات ثابتة ، ولو أنها بطيئة نحو تطبيع علاقاتهما الثنائية .

وإذا عكف المؤرخون ، وسوف يوجد من بينهم بلا شك من تغريهم هذه العملية في المستقبل ، إذا عكفوا على كتابة

تاريخ العلاقات المغربية الجزائرية ، فسوف يجدون وجه السيد عبد الحميد المهري ، ماثلا أمامهم باستمرار . لقد بادر الرجل بمجرد وصوله إلى باريس ، بالإتصال مع الدكتور يوسف بلعباس ، سفير المغرب ، وأقام معه منذ الأيام الأولى علاقات مودة وثقة ، فكان يتبادل معه الزيارات والدعوات ، وكان يتعمد الظهور معه في الحفلات الرسمية العربية والأجنبية ، ظهورا جعل بعض المدمنين على هذه التظاهرات يعتقدون أن أكثر دولتين عربيتين توجد بينهما علاقات طيبة ، هما المغرب و الجزائر . ولعل السفراء العرب اندهشوا خلال الإجتماعات الدورية التي عقدوها أثناء هذه الفترة ، بمقر الجامعة العربية ، من عدم وقوع أي خلاف بين السفيرين ، بل لعلهم استغربوا أنهما أكثر هم تفاهما . إلى جانب ذلك ، استقبل السيد عبد الحميد المهري خلال توليه رئاسة البعثة الدبلوماسية الجزائرية بالعاصمة الفرنسية ، أكثر من مرة ، شخصيات مغربية غير رسيمة ، إما في بيته ، أو مكتبه ، أو على العشاء في المطعم ، وكان يؤكد للجميع أنه حضر أساسا إلى باريس ليتسنى له الإتصال بالمغرب والمغاربة ، وليقيم الحوار معهم حول « همومنا المشتركة » ، وليدفع فكرة المغرب العربي إلى الأمام .

لذلك كان طبيعيا ، حين قررت الدولتان استئناف علاقتهما الدبلوماسية بعد قطيعة استمرت عشر سنوات ، أن يقع عليه اختيار الرئيس الشاذلي بن جديد سفيرا للجزائر في الرباط. وقد التحق السفير الجديد بمنصبه عشية مؤتمر القمة العربي الطارئ ، وبدأ على الفور في ممارسة هوايته السياسية الأولى : دفع عجلة وحدة دول المغرب العربي إلى الأمام . وعندما عقد رؤساء دول المغرب العربي مؤتمر قمتهم الأول ، على هامش مؤتمر القمة العربي الطارئ ، اختاروه بالإجماع ناطقا رسميا باسمهم جميعا . وفي الإجتماعات الأخيرة التي عقدتها اللجنة المغاربية العليا ، وشارك فيها رئيس الوزراء التونسي ورئيس الوزراء المغربي ، وحضرها وفد جزائري برئاسة السيد محمد الشريف مساعدية ، كان عبد الحميد « محرك » الفكرة الوحدوية .

ونستطيع أن نقول بلا تردد ومن دون مبالغة ، إن مجيء عبد الحميد المهري إلى منصب أمين الأمانة الدائمة للجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني ، ثم اختياره أمينا عاما للحزب هو : « وضع الرجل المناسب في المكان المناسب وفي الوقت المناسب » . أما أنه الرجل المناسب ، فذلك يعود إلى كونه ، كما أوضحنا في الفقرات السابقة من هذا المقال ،

ظل طوال الفترات الماضية بمعزل عن الصراعات السياسية التي مزقت القيادة الجزائرية ، وأنهكتها ، وأفقدتها الكثير من الحيوية والخيال والمصداقية ، لدى أعضاء الحزب الحاكم ولدى الشعب الجزائري . ولسنا نقول هذا الكلام من باب الإسراف في الوصف ، والتحليل ، ولكننا نشير إلى جزء بسيط من النقد الذي توجهه منذ بضعة أيام صحف تابعة للحزب الحاكم نفسه ، فهذا مثلا كاتب جزائري يدعى عبدو بن زيان يكتب في أحد أعداد مجلة « الثورة الإفريقية » ، وهي اللسان الرسمي للجبهة باللغة الفرنسية ، مقالا يقول فيه بالحرف : « إن الطبقة السياسية الجزائرية فقدت شرفها وأهدرت كرامتها ، لأننا لم نعرف أي واحد من أعضائها قدم استقالته علنا بعد كل الذي حدث » ، وقد قلت إن عبد الحميد المهري ، هو الرجل المناسب ، لأنه ليس من هذه الطبقة السياسية التي يتحدث عنها ذلك الكاتب الجزائري في صحيفة الحزب . هو ليس منها لأنه استقال من منصبه الوزاري حين رأى أن الظروف غير مناسبة للنهوض بمهمته كما يفهمها ، وظل لفترة طويلة يمتنع عن ممارسة مسؤوليات لا تقنعه ، ولا يمكن أن تمسه موجة الإنتقادات المتذمرة التي تجتاح الجزائر حاليا ، وقلت إنه جاء في المكان المناسب ،

لكون جبهة التحرير وهو من الرعيل الأول المؤسس لها ، خرجت مثخنة بالجراح من المأساة الأخيرة ، ولا يمكن أن ينقذها من ذلك المصير المحزن والمخجل الذي آلت إليه ، إلاوجه جديد . قديم ، إنها بحاجة إلى وجه جديد لم يتورط في كل الطبخات والتركيبات السياسية الماضية التي أصبحت مرفوضا من قطاعات واسعة في الرأي العام الجزائري ، ومرفوضة بالخصوص من قبل الرئيس الشاذلي بن جديد نفسه . وأخيرا فإن وقت تولي عبد الحميد المهري لمنصبه يأتي في مرحلة داخلية وإقليمية تحتاج إلى نوعية معينة من الرجال ، تدير دفة الحزب الحاكم ، وتشرف على إصلاحه بأسلوب يحتاج إلى كثير من الدبلوماسية .

وإذا كان تعيين السيد قاصدي مرباح في منصب رئيس الحكومة يستهدف الفاعلية وضمانة الأجهزة والتحكم فيها ، فإن اختيار عبد الحميد المهري للإشراف على المؤتمر ، ثم تعيينه أمينا عاما للحزب ، كان يرمي هو الآخر إلى وضع رجل يطمئن إليه المناضلون على رأس جهاز هزته الأحداث الأخيرة هزا عنيفا ، ويحتاج أعضاؤه إلى من يعيد إليهم الثقة في النفس . وقد كان أول ظهور لبعد الحميد المهري ، هو توجيهه نداء إلى أعضاء جبهة التحرير ، يدعوهم فيه

إلى التعبئة ، للمشاركة في استفتاء الثالث من نوفمبر ، ويخبرهم بأن انتخابات المجالس البلدية والمحلية والوطنية ، ستتم خلال السنة المقبلة ، ولن يكون الترشيح فيها مقصورا على أعضاء الحزب ، وإنما سيكون مفتوحا بوجه جميع المواطنين .

وعبد الحميد المهري كان ولا يزال بعيدا عن الصراعات الداخلية ، ولا يمكن لأحد أن يتهمه بأنه يريد استغلال منصبه الجديد لتقوية شبكة الأصدقاء والزبناء السياسيين . إنه يتمتع باحترام المسؤولين القدامى والمناضلين ، ولا يعترض عليه الشباب لكون صفحته ماتزال بيضاء عذراء ، خالية من تلك الشوائب التي تلصق اليوم بعدد كبير من المسؤولين . إن تعيينه في منصبه الجديد ، هو ترجمة لإرادة الإنفتاح والتغيير . ولقد بدأ الرجل إجراء سلسلة من الإتصالات مع عدد من الشخصيات التاريخية ، وترك لديها الإنطباع بأنه يبحث جادا عن صيغة تسمح لكافة التيارات السياسية بأن تعبر عن نفسها بهذه الطريقة أو تلك .

على صعيد المغرب العربي ، نستطيع أيضا أن نقول بأن مجيء المهري إلى الأمانة العامة لحزب جبهة التحرير ، يندرج في نفس الخط السياسي . إن المسؤول الجديد للحزب

الحاكم في الجزائر ، علاوة على تاريخه وقناعاته الفكرية الوحدوية ، له صلات وثيقة بالمسؤولين التونسيين والمغاربة . إنه صديق شخصي للوزير الأول الهادي بكوش ، وله معرفة قديمة بالعاهل المغربي الحسن الثاني الذي يكن له التقدير والإحترام ، كما أن علاقات المودة والتقدير تربطه بزعماء سياسيين مغاربة . لذلك فإن وجوده في موقعه الجديد كان عنصر اطمئنان وارتياح ، قد أمن خلاله الجيران الأقربون ، وخاصة التونسيون والمغاربة ، وجود إرادة قوية لدى القيادة الجزائرية في الإستمرار بسياسة الإنفراج الإقليمي ، وفي دفع فكرة التنسيق والتعاون بين دول المغرب العربي خطوات جديدة ، على طريق وحدة منشودة ، ما يزال الجميع يبحثون عن صيغة ملائمة لها ●

« الموت بارد يا أمي .. أرسلي لي قميصاً من الصوف. »

في صحراء باريس

بلال الحسن*

كل صفة نصف بها « الباهي محمد » الذي فقدناه قبل أيام ، ستكون صفة صحيحة ، وصفة مثيرة للجدل في آن .

الباهي محمد صحافي شهير ، ولكنه ينفر في الآن نفسه من روتين العمل الصحافي وقيوده ، لم يشاهد جالسا في مكتب أي صحيفة عمل بها ، إنه يختفي ، سواء في المدينة نفسها أو في بلد آخر ، ثم لا يظهر بشخصه ، بل تظهر

* صحافي فلسطيني جمعه العمل مع باهي في جريدة « السفير » ، ومن بعدها في مجلة « اليوم السابع »

مقالاته المتوالية عن البلد والناس حيث كان ، وإذا مر فمثل أي زائر ، يضع أوراقه على الطاولة ويمضي ، ويتصور القارئ من الخارج ، أن هذا الصحافي ولا شك قد أمضى ساعات مضاعفة وهو يدبج مقالاته خلف مكتبه . ولكني أشك أن أحدا كان يعرف أين يكتب الباهي مقالاته . إنه الصحافي الموجود دائما في الخبر والكلمات ، ولكنه الصحافي الذي يستعصي على المكاتب والغرف والحضور والدوام .

والباهي محمد حزبي شهير ، ربما منذ وعي الحياة من حوله ، حزبي بالفطرة ، حزبي فعال وقيادي ، حتى أنه انتخب عضوا في اللجنة المركزية لحزبه ، ولكن الباهي يستعصي في الآن نفسه على أي عمل حزبي ، على الإجتماع الأسبوعي ، وعلى المهمات المحددة ، وعلى المتابعة اليومية ، وعلى كل ماهو مطلوب منه ، حتى إذا ما جاءت ساعة الحقيقة ، وآن الآوان لاختبار الرجال ، كان في المقدمة دائما ، هكذا بعفوية ودون أي سؤال .

والباهي محمد مثقف كبير ، ولكنه لم يضبط أبدا لا في مدرسة ولا في جامعة ، لم يعرف قيود الدرس ، ولا قيود

البحث ، ولا قيود الإستشهاد بالمراجع .. المراجع داخل حقيبته ، وفوق رفوف الكتب في منزله ، وداخل ذاكرته ، ولكنها ليست أبدا في أواخر صفحات كتاباته ، إنه يعرف تاريخ المغرب جيدا ، إنه يعرف مؤتمرات الأحزاب المغاربية وما دار فيها من صراعات ، إنه يعرف أسرار الثورة الجزائرية ، وهو يكتب عن ذلك كله كتابة العارف والعالم والمدقق ، ولكن الإستشهادات الأكاديمية هي آخر ما يفكر به ، إن الحقيقة حقيقة بدون حاجة إلى استشهاد ورقم ، ولهذا عده الكثيرون مثقفا واسع الإطلاع ، بينما لم ير فيه آخرون هذه الصفة ، وهو لم يحاول أن يثبت شيئا ، لالهؤلاء ولالهؤلاء ، فقد كان يفيض ويكتب وكفى .

والباهي محمد لغوي كبير ، يشدو بالمعلقات كما يدندن الواحد منا بالحان الأغاني التي يحفظ مطالعها ، ويشدو بالقرآن مترنما كأنما يحس به جمالا لا يدركه سواه . ونسأله متى حفظ المعلقات ومتى حفظ القرآن فلا يدري جوابا ، ربما ولد وهو يحفظ المعلقات ويحفظ القرآن ، وربما حفظهما بعد ذلك ، وهو لا يرى في السؤال والجواب أية أهمية ، فهما موجودان معه ، كالشمس والهواء ، ولا أحد يسأل عن

الشمس والهواء . لم أجده مرة معنيا بالسؤال والتدقيق ، إلا حين ظهرت الترجمة الفرنسية للمعلقات ، كان يشدو بمقطع فخيم من الشعر ، ويستعجب كيف يمكن لهذا المعنى الفخيم أن يترجم ، وحين يكتشف أن المترجم قد صاغ معنى فخيما مماثلا باللغة الفرنسية ، يصبح مثل الصوفي المتوله : « الله ... الله » .. ولكن الباهي محمد كان حين يكتب نموذجا لعذوبة اللغة وجمالها ، كانت المعلقات حائطه القوي، ولم تكن أبدا صخرة يرجم بها .

والباهي محمد مغربي أصيل ، بدءا من سمرته الشديدة ، وانتهاء بقدرته الهائلة على الصمت (الصحراوي) حين يريد ، ولكنه كان أحد النماذج المبكرة لإدراك عمق الإرتباط بين المشرق والمغرب ، وهو إذا تحدث عن لبنان أو عن سوريا أو عن العراق ، لحسبته قد قضى حياته في الموصل أو حلب أو بعلبك ، فقد كان يعرف كل هذه البلدان كما يعرف بلده المغرب ، ولذلك كان بحق « قوميا » أصيلا ، إنما أبعد ما يكون عن نظريات القوميين وأطروحاتهم ، وكثيرا ما كان يردد أنهم يطرحون قومية مشرقية ، لا صلة لها بإسلام السعودية واليمن ، ولا صلة لها بخصوصية التراث البربري في المغرب . وكان يقول إن

البدوي في الصحراء الإفريقية هو القومي الحقيقي ، فحين يصل إلى الحدود ، يخرج من جيبه ثلاث بطاقات هوية أو أكثر ، ويسأل موظف الحدود عن الهوية التي تناسبه ليعبر بواسطتها .

وقد جاء الباهي محمد من الصحراء مباشرة إلى باريس، وقضى فيها نصف عمره ، وتعلم لغتها إلى حد الإتقان ، وعاشر كبار صحافييها ومثقفيها ، ولكنه بقي بدويا بدويا ، بالكاد لمسته باريس بميسمها ، وظل يتعامل معها ربع قرن أو يزيد وكأنها الصحراء ، وأحبها لأنها تتيح له أن يعيش فيها كما كان يعيش في الصحراء ، إذ لم يكن الباهي يحس بالقيود ، يتحرك ، ويمشي ، ويعتزل ، دون أن يزعجه أحد ، وأدرك أن باريس تستطيع أن تعطيه الشيء نفسه ، أن يتحرك وأن يمشي وأن يعتزل ، دون أن يزعجه أحد ، وإذا كان المشاؤون كثرا في باريس ، فقد كان الباهي نقيبهم وزعيمهم ، وربما لن يوجد شخص ذرع شوارع باريس مشيا ، وفي كل أوقات النهار والليل ، مثلما كان يفعل الباهي محمد . لقد جاء إلى باريس بدويا ، وبقي فيها بدويا ، ولم يزعجه ذلك ، ولم تنزعج منه باريس . كان يعرف كيف يلامسها ، وكانت تعرف كيف تترك له حرية التجوال . ولكن

حين تحين اللحظة المناسبة ، يبرز الباهي كواحد من القلة الذين يعرفون أسرار المدينة : الأسرار فوق شوارعها ، والأسرار تحت الشوارع ، فهذا البدوي الذي عرف الصحراء كان يعرف باريس مثلما يعرف العاشق جسد عشيقته ، بل ربما كانت باريس عشيقته الوحيدة ، وربما لذلك مات وهو في الطريق إليها .

ولكن هذا البدوي المشاء ، المعتزل ، كان حاضرا في كل عمل سياسي في باريس ، كان موجودا دائما في العمل الوطني المغاربي ، وموجودا دائما في العمل الوطني الفلسطيني ، وموجدا دائما مع اللبنانيين ومآسيهم . وبقدر ما كان مغرما بالعزلة ، كان معروفا من جميع العرب القادمين إلى باريس من أجل هدف ما ، أو من أجل قضية يعنيه أمرها . وهذا المغربي المشاء ، المعتزل ، أخذ بيدهم جميعا ، خدمهم دون مقابل ، اكتفى منهم بالمحبة والود وحرارة الإستقبال والسلام .

لكل هذا نقول إن الباهي محمد ، في كل صفة من هذه الصفات ، كان نموذج الصواب ، وكان نموذج « الإختلال » ، والغريب أن الكل عرفوه وأحبوه لأنه كذلك . أما حين جاءه الموت ، فلم تكن هناك سوى حقيقة واحدة ، حقيقة لا تحتمل

أي تساؤل عن الصواب والخطأ ، حقيقة الموت المر ، الحقيقة الوحيدة .

و ... « القبر بارد يا أمي ... أرسلي لي قميصا من الصوف » ●

« الباهي ، مخلوق غير قابل للموت ! »

فضيحة الحياة

د. عبد الرحمان منيف *

الذي رأ ى»

هو الذي طوف في البلاد ، وذهب إلى أبعد الأماكن ، في محاولة لاختبار الأفراد والأحزاب والمجتمعات والدول . والذي لم يترك كتابا صادفه إلا وشرع في قراءته. كما وضع عشرات الأفكار والعناوين لما يجب أن ينجزه ، هذا الذي فعل كل ذلك ، قرر في لحظة ، أن يترك كل شيء ويمضي . مضى بصمت ، من دون تلفت ، من دون أن يقول إلى اللقاء أو تصبحون على خير ! .

* روائي عربي

« لقد رأى كل شيء »

وبصمت أقرب إلى التسلل ، من دون أن يحس أحد ، غاب ولم يترك سوى أصداء تتوالى ، كما تتوالى الأصوات في الأودية ، ليقول لنا ، من دون كلمات كثيرة : ألم تتأكدوا بعد ؟ ألم أقل لكم قبض الريح وحصاد الهشيم ؟

من الإجابات التي لم يمل من تكرارها ، حين يسأل عن حياته وأيامه : « مازلت أمارس فضيحة الحياة » ، ويبدو أنه بعد أن خبر الحياة ، وعرف الكثير وتأكد من الحقيقة ، قرر أن يتوقف عن ممارسة هذه الفضيحة ، ولذلك شق الظلمة ... وغاب .

هكذا غاب الباهي محمد .

إنه لأول مرة يلجأ إلى الخديعة فيغافل الجميع ويغادر . إذ بعد أن ألفناه ، أو ربما عودنا ، الصخب الذي يرافق قدومه والذهاب ، تعبيرا عن عنفوان الحياة ، وضرورة الإقبال عليها بشهوة تصل حدود الصرامة ، أو ربما الخشونة، مع ما يستتبع ذلك في المظهر والتصرف وطريقة الخطاب ، وحتى في الأكل والشراب ، وذلك الإفتتان بكل جديد وطريف وجميل ، وغريب أيضا ، وكان يصر على أن يبقى أمينا لذلك كله... تخلى عن هذه الفلسفة بتصرفه الأخير.!

عندما قرأت خبر غيابه ، ولم أصدق ، شعرت ، أول الأمر ، بالغضب الشديد : كيف يمكن له أن يتخلى عن أصدقائه ويمضي ؟ ليس ذلك فقط ، أن يمضي بهذا المقدار الهائل من الصمت ، من دون أن يحس أحد ، وكأنه لا يريد أن يوضح ، أن يعتذر عن هذه الطريقة السمجة في الغياب .

بعد الغضب ، وعدم التصديق أيضا ، تذكرت كانكس ، صرخة الماء ، أو الرجل الذي مات مرتين ، وتذكرت موت موظف لتشيخوف .

وإذا كانت قصة أمادو تؤكد أن كانكس ، صرخة الماء ، لا يمكن ، بنظر أصدقائه ، أن يموت ، وأن يمضي هكذا بلا ضجة ، بلا وداع أو احتفال ، فقد قرر هؤلاء الأصدقاء أن يسهروا معه في الليلة الأخيرة ، قبل أن يودع التراب في اليوم التالي ، خاصة بعد أن عف الأهل عن السهر على جثمانه ، لأنه يخدش سمعة العائلة بسلوكه وثيابه وأصدقائه ، ذلك السلوك المخالف الذي ارتضاه لنفسه .

هذه القصة التي تقول جانبا من حياة الباهي محمد ، لا تكتمل إلا إذا تذكرنا القصة الأخرى ، قصة تشيخوف : الصدفة تجمع بين موظف صغير ورئيسه في المسرح . كان

الموظف يجلس وراء الرئيس ، وتشاء الصدفة ذاتها أن يعطس الموظف ويتطاير رذاذ من فمه ، فيمسح الرئيس صلعته ويلتفت ليعرف الذي عطس فيرى مرؤوسه الذي انكمش إلى درجة التلاشي لفعلته . وفي الإستراحة يحاول ذلك الموظف الإعتذار والتوضيح بأنه لم يتعمد ذلك أبدا ، لكن الرئيس لايريد أن يسمع ، فيشيح بنظره ازدراء أو لعدم الإهتمام . ويحاول الموظف أن يعتذر لرئيسه في اليوم التالي ، لكن هموم الرئيس أو نسيانه للأمر يجعله يصرف الموظف بخشونة . فيرجع إلى بيته، ويجلس على كرسيه ... ويموت ! .

هكذا فعل الباهي محمد .

بهدوء ، بصمت ، وأيضا مبكر ، وبعد أن رجع إلى المغرب ليبدأ الحياة الجديدة ، بعد سنوات التشرد الطويلة ، وكأنه يعتذر عن هذه السنوات، وجد أن أفضل شيء يفعله أن يغفو ... ويغيب . ربما لأنه وجد في عودته أن كل شيء غريب ، مختلف ، غير مقنع ، ولذلك جلس على حافة السرير ، وغرق في غيبوبة متعمدة ، ونسي نفسه ، أو نسيه الآخرون ، إلى أن دهمه الموت ! .

لا أحد يستطيع إقناعي أن الباهي يمكن أن يموت ، إنه مخلوق غير قابل للموت .

كان واثقا أنه ضد الموت . وحتى لو أراد ، فلن يحصل ذلك إلا بعد وقت طويل ، وبالتالي فإن لديه فسحة غير محدودة من الوقت ، خاصة وأن عنده عشرات المشاريع التي يجب أن تنجز قبل أن يقرر الإنتقال إلى الضفة الثانية ، ومن الجريمة ، وليس الخطأ ، أن يتركها دون انجاز .

كان يجمع المراجع ، يراكمها ، يبحث عنها بهمة لا تعرف التعب ، كأي دارس جاد ، من أجل استكمال الأدوات تمهيدا لبداية المسيرة الكبرى .

ومسيرته التي بدأت من ضفة نهر السنغال الشرقية لم تهدأ ولم تتوقف . كانت تتتابع خطوة في إثر خطوة ، فرسخا بعد فرسخ ، بلدا إثر آخر ، كي يلم ويتعرف ويتأكد ، تمهيدا للشروع في العمل .

لديه من المراجع عن باريس أكثر مما لدى المتخصصين ، فقد كان يشعر بالحرج ، الأقرب إلى الإهانة ، أن لا يعرف كل شيء عن هذه المدينة التي أحبها إلى درجة الإدمان ، ولم يكتف بمعرفة التاريخ والمعالم القائمة فوق الأرض ، نزل إلى الأعماق ، إلى الدهاليز السفلية ، إلى المجاري ، كي يتعرف على جذر المدينة .!

لديه من المراجع ، والمعرفة أيضا ، عن الصحراء ، مالا يطيقه إلا كل مهووس . وزيادة في المعرفة يتابع أخبار الصحاري البعيدة : معدلات الأمطار ، أنواع الصبار التي تنمو هناك ، مواعيد إزهارها . وأخبار الحيوانات ، حتى المنقرضة ، والمقارنة بينها وبين حيوانات الصحاري العربية ومواعيد الإخصاب .!

أما بالنسبة لممالك النحل والنمل ، فكان يتقصى أدق التفاصيل ليعرف عنها الكثير ، ثم يجري مقارنات بينها وبين ممالك الإنسان ! يفعل ذلك شفهيا ، مع وعد أن يكتب عن هذه الممالك ، بعد أن يستوفي المعلومات .

والكسوف والخسوف وتأثير كل منهما في الإنسان ، بما في ذلك دورات القمر والخصب ، وأثر ذلك على المخلوقات من نبات وحيوان ، وعلاقة كل ذلك بالمد والجزر ومغناطيسية الأرض والكواكب والمجرات في الفضاء الخارجي .

بكلمات أخرى : كان لدى الباهي من المشروعات ما يوازي شعره الكث ، وما يقارب ضحكاته الصاخبة . وحين يسأل متى يبدأ الكتابة ، يرد ، وهو يضع يده على فمه ، كي يخفي ، قليلا ، أسنانه الكبيرة اللامعة : « لا تخف ،

إذ بعد أن أصبح مستقبلنا السياسي خلفنا ، فلابد أن نتفرغ للكتابة ، والكتابة لا تبدأ إلا إذا استكمل الإنسان الأدوات . وأنا الآن في هذا التطور انتظر وسترى » .

كان لديه مشاريع روائية ، ومشاريع سياسية ، وأخيرا كتابة المذكرات .

المشاريع الروائية بدأ بها ، هكذا قال لي ، لكن لا يريد أن يطلع عليها أحدا قبل أن تكتمل ! أما حين سرق أحد الأكياس ، أو ربما نسيه ، في المترو ، وكان فيه مسودة رواية ، فقد كان رد الذين سمعوا بهذه الواقعة ، وربما من قبيل التحريض ، عله يعرف وقتا وجهدا منظما أكبر في هذا المجال : « إن أفضل ناقد لهذه الرواية . باباهي ، هو لصها ، فقد عرف أهميتها ، ولابد من أن يبحث عن مترجم يتقن اللهجة الصحراوية ، كي يترجمها إلى العربية أو إلى الفرنسية، وربما أصبحت أنت ذلك المترجم ! » .

بالتأكيد لديه مشاريع روائية ، لا أعرف هل اكتملت أم لا ؟ ، فقد كان يجيب حين يسأل عن ذلك : « لدينا من الوقت الكثير ، والعجلة من الشيطان ! » .

أما عن المشاريع السياسية ، فأتذكر أن من أوائل إعلانات « دار الطليعة » في بيروت عن إصداراتها ، في بداية تأسيسها ، مطلع الستينات ، قرب صدور كتاب للباهي محمد ، وها قد مر أكثر من ثلاثين سنة ولم يصدر هذا الكتاب حتى الآن ! لم يصدر ليس لأن الباهي عاجز ، أو ليس لديه ما يقوله ويكتبه ، ولكن لشعوره أن كلمته لم تكتمل بعد ، وبالتالي لا حاجة للسرعة « ... وعلينا أن نكون متأكدين قبل أن نطلق الأفكار والأشياء التي نريدها أن تبقى » .

وفي مجال المذكرات ، وفي لحظات الغضب أو البوح ، كان الباهي يقول الكثير . وكان لديه الكثير أيضا حول أبرز القضايا المتعلقة بالمغرب العربي الكبير وأخطرها ، بدءا من منتصف الخمسينيات وحتى وقت متأخر .

إن ما يعرفه الباهي عن الثورة الجزائرية لا يعرفه إلا القلائل ، بحكم صلته القريبة ، ولقيامه بأدوار أساسية ... الشيء نفسه ينطبق على المغرب ، فقد كان أحد المقيمين في بيت المغرب خلال السنوات الكثيرة ، عرف خلالها أشياء وأشخاصا لم يتيسر لأحد غيره أن يعرفها بهذا المقدار .

لقد طلبت منه بإلحاح ، ومرات عديدة ، أن يسجل ما رأى وما كان شاهدا عليه ، فكان يصهل بتلك الضحكة الصاخبة ، ويزوغ ، في محاولة كي يقول إن « النشر » يحرج الكثيرين وقد يجرحهم ، وحين يشار إلى الفرق بين الكتابة والنشر ، بعد أن يفعل ، وأن يقول كلمته في الوقت المناسب ، ولا أعرف إن فعل أو لم يفعل .

أما حول علاقة الباهي بالمشرق ، فأعتقد أن لا أحد في المغرب كله يعرف الشرق كما يعرفه . قد يكون هناك آخرون ، كالأخضر الإبراهيمي والبصري والمهري ، يعرفون المشرق ، ولهم صلات بالكثيرين ، لكن صلة الباهي مختلفة ، إذ تبدأ بالكبار ، الذين لم يكونوا كبارا في وقت سابق ، لتصل إلى القاع ، وكان أكثر صلة بهذا القاع الذي يعرف ويعكس الحقيقة ، وبالتالي كان الباهي لا يكتفي بما يقوله الكبار .. كان أحرص على معرفة ما يقوله الصغار ، لأن عن طريق هؤلاء يتم الوصول إلى الحقيقة .

هل كتب مذكراته ؟

أتمنى ، وأكون سعيدا ، ويمكن أن أغفر له موته وطريقته في هذا الغياب لو أنه فعل ، لكنني لست واثقا ولست متفائلا . فهذا « المتوجس » النفور ، المراقب ، المنتظر ،

كان يعطي نفسه مائة سنة إضافية ، ولذلك لم يكن في عجلة من أمره . كان يريد اكتمال الوقائع ، اختتام الفصول ، وربما إسدال الستارة ، قبل أن يقول كلمته ، لأن ممارسة مهنة المؤرخ تقتضي : الإنصاف ، الهدوء ، انتفاء الخصومات ، كي يقول كلمته ولا يندم بعد ذلك .

إذا كان الباهي قد أنجز هذه المهمة فسوف يكون عمله ذاكرة إضافية ، مليئة بالتفاصيل والوقائع والأسماء ، وقد تجعلنا نقرأ تاريخ جزء من المرحلة بنظرة مختلفة ، ومن شأن ذلك لو حصل أن يجنبنا تكرار الأخطاء ، ويساعد على اختصار عدد الضحايا ... وأتمنى أن أوراقا مثل هذه موجودة ، وأن تساعد زوجته وإبنته على حمايتها ، انتظارا للوقت المناسب من أجل نشرها .

حياة بعض الناس رواية ، وبعض الأحيان رواية مليئة بالأسرار والسخرية السوداء ، ربما لأن الحياة ذاتها شديدة الكثافة ، بالغة التعقيد ، ولا تخلو من السخرية أيضا .

وإذا كان أبطال تلك الحياة لا يعترفون بهذه البطولة أو لا يدركونها ، وربما لا يقدرونها ، فلأن لديهم من الطموح والرغبة بتجاوزها ، أولا يملكون الوقت لتأمل هذه الحياة . والباهي كان ينطلق من فكرة أخرى : كل ما مر في هذه

الحياة مجرد تمرين (بروفه) . أما الحياة الحقيقية ، ما يجب أن نفعل ، فسوف نفعله في وقت لاحق . المهم أن نعيش الآن ، أن نفتح أعيننا جيدا ، ونراقب كل شيء .

وفجأة ، في لحظة مجنونة ، عابثة وساخرة ، نقرأ في زاوية جريدة ، أو على عمود كهرباء ، وفاتنا ، غيابنا ، فننظر إلى أنفسنا ، إلى بعضنا ، بشيء من الحزن والألم والمرارة ، ثم نواصل رتابة الحياة ، ويترسب في أعماقنا شيء ثقيل يجرنا إلى أسفل .

« لا تنس الموعد ، يا باهي ، كلوني ، العاشرة » ويكون المترو أغلق أبوابه استعدادا للإنطلاق إلى محطة جديدة ..!

وعبر الزجاج ترتسم الضحكة ، وتبرز الأسنان الكبيرة ، وتلوح اليد اليمنى ، في الوقت الذي تحمل اليد اليسرى عددا من أكياس البلاستيك الملينة بالكتب .! ●

« إنـــه يخادعنـــا ، هذا البـاهي .. ولعلـــه يسير الآن في بعض أرجاء الوطن. »

المواطن العربي الأول

طلال سلمان *

في زاوية متواضعة من صفحة داخلية مثقلة بأخبار الحكام وصور حروبهم ، كان يتربص بنا في كمينه المموه ، بمباذل خصومه .. خصومنا .

الإسم أبيض فوق شريطة سوداء .

لاصورة ، لا إطار ، لا مكان بارزا في رأس الصفحة .

كان الباهي محمد قد تدخل شخصيا لطمس خبر موته .

الباهي يموت ؟

* رئيس تحرير جريدة «السفير» البيروتية .

لو قالها أحد ، شفاهة ، لضحك السامعون .

فهذا الذي يحمل فوق وجهه ملامح يده الطليقة ، قادر أن يقنعك بعد أن تعرفه بأنه باق بعد الموت وأن تعاقده مع الدنيا يتجاوز أعراض الحياة والموت .

الباهي محمد .

ورد الصبار الصحراوي .

« المرابط » المكلف نفسه بإعادة الإعتبار إلى عقبة بن نافع وموسى بن نصير وطارق بن زياد .

الأموي الأندلسي « العائد » ليسائل الذين خذلوا أحفاد عبد الرحمن الداخل ، فتركوهم يأخذون عنهم خطاياهم وأخطاءهم ، ويضيعون هناك مثل الذين من قبلهم هنا .

ألفاطمي الآتي مجددا من المغرب الأقصى ، لينقذ بَرَّ الشام وأولى القبيلتين وثالث الحرمين ، من التتار والصليبيين ، لكي يستطيع إكمال رحلته إلى حج بيت الله الحرام .

... والعائد من رحلته إلى الشرق بشامه ، قلب العروبة النابض . وبغداد أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد براية البعث وسيف الوحدة ، وقد ضخ المناضلون الدم في شرايين حلمهم القديم فجددوه .

هذا الشريد الطريد الذي خرق الحدود جميعا ، وضحك على الأنظمة وأباطرتها جميعا، وهو يكتب في « صحفها » مستعينا بثقافته التي لا يدركها رقباؤها .

هذا الصعلوك الفارس .

هذا الذي يختزن ديوان الشعر العربي ، والقرآن الكريم ونهج البلاغة ، وتاج العروس ، ولسان العرب ، وتاريخ الطبري ، ومقدمة ابن خلون .

هذا الذي قرأ في الثقافة وفي الأدب ، رواية وشعرا ومسرحا واجتماعيات ، ما لم تقرأه الأقلية من الفرنسيين .

هذا الباهي الآتي من الصحراء القديمة إلى باريس ، ليكتب عنها بعض أجمل القصائد .

هذا الحامل مغربه في قلبه ، بصحرائه والمحيط بالأرض التي لا تزال تحتلها إسبانيا ، وبالظلم الذي لا يزال ينزل بشعبه .

هذا المقاتل في الجزائر مع ثوارها والمسجون فيها ، من بعد ، مع ثوارها وعلى يد ثوارها .

هذا المطارد في بغداد ، وفي دمشق ، والمسجون فيهما عندما الحزب الواحد صار أحزابا ، والمطرود إلى ليبيا ، وإلى تونس ومنها ، وأخيرا : المطرود من فرنسا .

هذا العائد إلى المغرب ، أخيرا ، متخليا عن تاريخه لكي تعرف ابنته أن لهما وطنا ، وأن لهما حقا فيه ، والذي فقد فيه ، فور وصوله ، إحدى الإبنتين ، ونصف العمر ، ومعظم الرثاء .

الباهي محمد يضحك الآن ساخرا من هذه الكلمات .

الباهي محمد الذي أعطى ما يملك للجميع من دون حساب ، مات غريبا ، لا يعرفه أحد في المستشفى الذي أدخل إليه مريضا .

ليست هي نهاية الرحلة التي اتسطالت ـ على قصر زمانها ـ حتى غطت حالة النهوض العظيمة ، وقاومت الإنتكاس بشراسة إلى أن اكتملت الهزيمة « بالزيارة » ، ثم اتفاقات الإذعان وسقوط القلعة الفلسطينية .

إنه يخادعنا ، هذا الباهي محمد .

لعله يسير الآن في بعض أرجاء الوطن .

لعله يحاول التسلل إلى الغد بعيدا عن الرقباء .

لعله في المدينة المجاورة ، في الحي المجاور ، في البناية المجاروة ، في الشقة المجاورة .

إنه في مكان ما هنا .

إنه في كل الأمكنة .

كان فيها وسيبقى فيها لأنه ، من قبل ، قد هزم الموت مرة واستطاع النجاة ، أو لعله تقدمنا ـ كعادته ـ ليكون كما كان دائما الحادي والدليل .

إلى اللقاء أيها البدوي الذي رفعته ثقافته ونضالاته وإخلاصه وتضحياته وضياعه وشهامته إلى معارج الصديقين .

وقبل الإفتراق ، أصدقنا القول : هل تركتنا حقا ؟! إن كان ذلك صحيحا ، فعذرا للغياب وللتقصير .

* * *

إنه نحن جميعا : جلينا ، بإنجازاته وإخفاقاته ، بطموحاته العظيمة والهزائم الشنيعة التي لحقت به ، بنهمه إلى المعرفة وتشوقه لاستعادة المكانة والدور ، وبالمهانة التي كنا نحسها حين نكتشف أننا أصغر من أحلامنا ، وأن حكامنا أخطر من أعدائنا ، وأن العجز والجهل والتخلف والإستسلام للقمع ، كلها كامنة فينا ، تشدنا إلى الخلف بينما العالم الخصم يتقدم باستمرار .

البدوي ، الصحراوي ، الحضري ، الكاتب ، القارئ ، الراوية ، الصحافي ، الشاهد ، « الشواف » ، الصعلوك ، الأمير ، المغربي ، المشرقي .

إنه المواطن العربي الأول ، مع كثير من التمني ألا يكون الأخير !

لا يعرف الحدود ولا يعترف بها حتى وحراسها يحجزونه ويمنعونه دونها .

ولا يعرف الحكام بمن فيهم أولئك الذين كانوا أصدقاءه ، ثم خلعهم الحكم من الصداقة والوفاء ، من العروبة وقضايا النضال والشعارات المقدسة .

هو « المغرب » بمشروعه الأصلي : يمتزج في تكوينه الأمير عبد الكريم الخطابي ، وشكيب أرسلان ، وعلال الفاسي ، والمهدي بن بركة ، والمحجوب بن الصديق ، وعبد الله إبراهيم ، فهو « الإستقلال » ، « الإتحاد الإشتراكي » معاً ، هو البعثي والقومي العربي والناصري والتقدمي معاً ، وهو المثقف المرتبط بالأرض ولو كانت رملاً ، لم يهجرها بزعم الحداثة ، واستطاع أن يسكب بول فاليري في طرفة بن العبد ، وأن يقرأ موليير في الجاحظ ، وأن يفهم رسالة الغفران للمعري في دانتي ، وأن يحاور المستشرقين ويصادقهم ، ويصحح لهم بعض أخطائهم بوصفهم « تلامذة » في مدرسته ، وليسوا صُنّاعاً لتاريخه أو لوجدانه .

إنه المواطن العربي الأول ، وقد تمتع بالإمتيازات جميعها المخصصة للمواطن وللعربي ، فكيف بالأول ، من اضطهاد وسجن وقمع وإفقار وتشريد .

ولعله كان « يغريهم » بنفسه : اضربوني من فضلكم، لأتأكد من أنكم سفلة ، وأولاد كلب ، وتمنحون بنهجكم الإستبدادي تزكية للإستعمار وجلاّديه السفاحين .

لكأن جيلنا يسير في جنازته الآن ، وكأننا ننعي أنفسنا فيه .

لقد مات دون أبسط أحلامه ، ولعله مات لأنها هجرته أو لم يعد يقوى على حملها ، التشرد بها على قارعة الهزيمة المتمادية .

في مجال التحية أستذكر تلك الحكاية التي طالما استمتع بروايتها ..

قال الباهي محمد : « ـ كنت في الدار البيضاء عشية وصول جمال عبد الناصر في زيارته لها في أوائل الستينات (1963 ، على الأرجح) ... ولاحظنا حركة غريبة في المدينة المكتظة بالقصور والفقراء والمكاتب وأكواخ الصفيح . كان البشر يملأون الشوارع جميعا . بل إن بعضهم « حجز » سلفا بعض السطوح و الأشجارو أعمدة الهاتف والكهرباء .

« تحول الميناء وما جاوره بكل امتداداته ، إلى كتلة بشرية يستحيل اختراقها ، فعبد الناصر كان قادما على ذلك اليخت العتيق والأليف والذي غدا عائليا « الحرية » .

« كنت أتسكع بين الجموع كعادتي . فجأة لمحت بعض أهلي ، وقد أتوا من « العيون » والساقية الحمراء في الصحراء الغربية . تقدمت منهم ، فإذا بينهم شيخ القبيلة الكبرى في منطقتنا . وسألته عفويا : ـ ماذا جاء بك يا شيخ ؟!

« قال الشيخ : ـ جئت أقابل جمال عبد الناصر ـ إننا نكاد نموت عطشا ، وقد جئت لأشكو له الشح في المياه ...

« صعقت لبساطة عرضه ، ولما أفقت من دهشتي سألته :

« وما دخل جمال عبد الناصر في أمر المياه عندك في الصحراء ، يا شيخ؟!

« بدا على الشيخ أنه لم يفهم سبب دهشتي ، وقال ببساطته ذاتها :

« ـ كيف ! أليس جمال عبد الناصر هو شيخ مشايخ العرب جميعا ؟! إنه مسؤول عنا ، وعن كل شيء . هيا خذني إليه ... » .

... وعندما ذهب كل شيخ ببعض العرب في طريق

مختلف ، وذهب شيوخ آخرون ببعض العرب إلى الحرب مع بعضهم الآخر ، وارتحل مشايخ شاردون إلى « العدو » ، ولم يعد للشيوخ من ضابط ، وهامت القبائل على وجهها في صحراء التيه والغربة وافتقاد الهوية والمعنى ، دارى الباهي محمد غيبته ، فنزل عن شجرة الحياة و « غاب » كعادته ، فجأة ، وراء هدف لا يرى ، وقد يباغتنا حضوره فيه بعد حين .

لعله قد اختار اسمه فجعله مفتوحا ، تمكن الإضافة إليه حتى يتجمع فيه الجيل كله ، أو ما تبقى من « المواطنين العرب » على مواطنيتهم والعروبة .

والآن فلنسرع إلى الجنازة الجماعية ، قبل أن يمد لنا الباهي لسانه ! ●

« لقد ظل دوماً ، كرجل سياسة ، وكصحافي ملتزم ، وفياً لقناعاته . »

نشيد للفرح ..

زكية داوود *

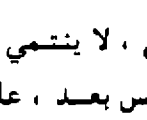

لي ، لا ينتمي محمد باهي لكوكبة الموتى . ليس بعد ، على الأقل ، تحضرني منه الآن ضحكة عالية حارة ونظرة مفعمة بالدعابة ، وكلتاها حيتان . وأعتقد أن الأمر سيظل على هذا النحو لمدة طويلة ، ففي مكان ما من الأثير ، حيث يوجد الآن ، مازالت عيناه مملوءتين بالشيطنة الفطنة والضحك الوشيك ...

لقد قطع باهي ما يكفي من العواصف والتقلبات والظرفيات في حياته ، التي نذرها لحزبه الإتحاد الوطني

* كاتبة وصحافية .

للقوات الشعبية ثم الإتحاد الإشتراكي ، وعبره ، لوطنه المغرب وبشكل أوسع ، للمغرب العربي وللقومية العربية ، لكي يعرف ثمن الإبتعاد والسخرية ، وهما ابتعاد وسخرية لم يكونا أبدا لامبالاة .

لقد ظل دوما ، كرجل سياسة وكصحافي ملتزم ، وفيا لقناعاته .

آخرون سيقولون ، كما أتمنى ، أو قالوا كم كان دوره خفيا ومهما في نفس الآن : فهو من أنجز في الصحافة المغربية أول حوار مع الحبيب بورقيبة وآخر حوار لمحمد بوضياف ، وهو لم يكن يتباهى بهذا الدور ، فقد كان يحرص على التواضع ، ولايضع نفسه أبدا في الواجهة كما أنه كان يُجل ويُقدس الصداقة .

والشيء الذي أكسبه أصدقاء عديدين ، بعضهم ، كتومين مثله ، يحيون اليوم ذكراه في نفس الصمت الذي جلعه قاعدة لسلوكه .

كان كريما ، ودائما على استعداد لتقديم خدماته ، كان يفضل أن يشدد على المزايا عوض العيوب ، يظهر الجانب الإيجابي في الناس والأحداث ، وهذا سلوك نادر .

أعتقد ، أن ما وراء العمل السياسي والتجارب

الصحفية ، كان باهي كذلك « شخصية » .

فقد ولد في خيمة ، في الصحراء ، واختفى أبوه في عاصفة رملية ، وبعد أن ماتت أمه حزنا ، رباه خاله حرمة ولد بابانا ، وتابع جزءا من دراسته في سان لويس بالسينغال .

ومن هنا بالضبط ، بعد عملية « إيكوفيون » وانتهاء جيش التحرير في الجنوب ، وصل بطريقة مثيرة إلى المغرب على ظهر سفينة شاحنة ، ووضع نفسه في خدمة الحركة الوطنية المغربية .

عاشر العديد من المعلمات المخلصة : علال الفاسي ، المهدي بن بركة ، عبد الرحمن اليوسفي وغيرهم ، وعاش العديد من الفترات الصحفية : العلم ، الإستقلال ، التحرير ، المحرر ، ثم المجاهد والوكالة الصحفية العراقية ... والإتحاد الإشتراكي دوما ، الجريدة التي كان يدير تحريرها منذ بعض الأسابيع ، بعد أن كان لمدة سنوات مراسلها في باريس .

لقد تعرفت عليه في الستينات بامبريجيما IMPRIGE-MA ـ في فترة المحرر . كان حيويا ، مرحا ونشيطا ، ولم يكن يخطو أية خطوة ، دون أن يحمل حزمة كتب تحت إبطه

، كتب يقرأها بنهم .

كعاشق للكتب ، كان باهي دوما كذلك ، وقد كانت شقته بباريس مخصصة لها ، حيث كان أزيد من 8000 مؤلف تتراكم فوق الطاولات والكراسي ، وعلى طول الجدران ، وفي حزم غير مستقرة . فكان يعيش ، كما في خيمة ، في الفضاء الضيق الذي كانت تتركه الكتب له . فوقها ، توجد جرائد مشرعة ، نصف مائلة ، مرمية بإهمال، وأحيانا يكون هناك ، في توازن هش ، صحن منسي في بهاء فوق الكل .

كان هذا الجانب البدوي فيه ، يثير ضحكاته وضحكات أصدقائه الموزعين في عدة هيئات للتحرير التي عبرها . لقد كان يقال إن « باهي ، مفرط » ، مفرط في ماذا ؟ في كل شيء .

عند مطلع الفجر ، كان يقوم بالعديد من الإتصالات الهاتفية التي تبدأ دائما بـ « أيوا » التي تعني فيما يبدو « وماذا إذن ؟ كيف الحال ؟ » و « ماذا يجري » ؟ بعد ذلك يلي سيل من الأخبار التي وصلته والتي كان عدم معرفتها يخجل مخاطبيه . لقد كان « موصولا » ولو عبر حاسة سادسة ، بكل ما يجرى في المغرب والعالم العربي

والعالم الثالث ، الذي كان على علاقة مع العديد من الفاعلين فيه ، والذين لم يكن يفتهم أبدا تبادل الرأي معه في خلوته .

لم يكن إذن في المنفى لأن العالم كله كان أرضه ، وهو شيء عاد عندما نكون من الرّحل . لقد كان على مسافة ، لكنها مسافة منسوجة من العديد من الروابط ، حتى إنها صارت حضورا .

وباهي الذي عرف تقلبات السياسة العربية في أدق تعرجاتها ، لم يكن يتحدث عنها إلا لماما . « أتعرفين ـ قال لي ذات يوم : لقد عشت حياة معقدة ، لقد نجوت من الموت مرات عديدة ، من بينها المرة التي رفضت فيها تسيير البوليزاريو .. انتظر يا باهي ـ أجبت ـ لا نتحدث في الشارع ، علي أن آخذ نقطا ، وحدها الرواية يمكنها أن تعطى المعانى الحقيقية لكل الأحداث ... »

« لكن ، يا باهي لن تحكي فيما يبدو أي شيء بعد . للأسف، لكنني متيقنة بأنك تستطيع أن تلهمني ، ومن هناك حيث أنت الآن . وقتها سيكون من السهل على أن أبدع » .

لقد بدأت ذاكرتي تمتلئ بالموتى ، من حسن الحظ يمكن

اختيارهم أفضل مما يحدث مع الأحياء : عبد الحق القادري ـ عبد العزيز بلال ـ عبد الصمد الكنفاوي ـ عمر بن جلون ـ بول باسكون ـ محمد خير الدين ـ نذير يعتة وآخرون كثيرون ...

كل يحتفظ بخاصيته ، وأصالته . ليسومتشابهين بدعوى أنهم ماتوا أو كونهم غير حاضرين يجعلهم في نفس المستوى، أو يرفعون إلى درجة المثالية ، فسيظلون كما كانوا وما نختار أن نتذكره عنهم .

بالنسبة إلي ، محمد باهي حرمة ، ضحكة عالية دافئة .

أخيرا ، مادام لابد من الراحة ، فارتح إذن .

لكن لا ترتح في سلام، بل في فرح ، لأن ذلك أفضل ●

« في سبتمبر 1970 شد الباهي رحاله شرقاً ، ليعيش معنا أحداث أيلول الأسود ، يوماً بيوم ، وساعة بساعة . »

تراث وحداثة

محمد ابو ميزر *

كان الباهي يقول « إنه صحراوي أصيل» ، ولد في الصحراء وعاش فيها طفلا ، صبيا ، وفتى حتى خط شاربه ، وتنقل مع عشيرته وقبيلته في متاهات الصحراء بحثا عن الماء والكلأ .. والمرض .. حيث يموت الإنسان قبل أن يولد .. والذي يعيش، يعيش حياة طويلة مديدة ، محصنا ضد جميع الأمراض ، حتى تلك التي لم تكتشف بعد .

* أول مندوب لمنظمة التحرير الفلسطينية بباريس وعضو المجلس الوطني الفلسطيني

كان مقتنعا أنه أقوى من المرض ، أقوى من الموت ، وأنه سيعيش بعدي عقودا وعقوداً ، حياة لم يحلم بها حتى نمرود .

وكان يقول لي : اكتب ، اكتب مذكراتك ، أيها الفلسطيني العربي ، لعل أحد الحالمين يوما يستفيد مما تكتب .

كنت أرى غير ما يرى ، وأن مازال في الوقت متسع ، وكنت سأكتفي بكلمة من الباهي ينصفني بها .

ولكن فجأة ، غرر بي الباهي ، وغادرنا ..

لذلك قررت الكتابة ، وسوف أبدأ بالفصل الأول ، فصل الباهي .

الزمان : زمن الصدق والمحبة ، زمن الجد والعمل ، زمن انتصار الثورات ، ولقاء المناضلين والمثقفين والكتاب ، زمن الطموح والأمل ..

نوفمبر 1963 .

المكان : الجزائر

الحضور : تنوع غريب من البشر ، كان لا يمكن أن يلتقي إلا في الجزائر ، وفي ذلك الزمن النادر بالذات ، البعض رحل ، والبعض مازال ينتظر ، والبعض هنا ، معنا في هذه

القاعة ، له مني كل الود والمحبة .. وكان الباهي .

وتدور الأحاديث ، أحاديث ذكريات ، وأحاديث برامج ومخططات .. وأحاديث طموحات .. ومنها طموح قيام ثورة في فلسطين مسترشدة بثورة الجزائر .

وساد صمت ، وبدأت التساؤلات ، وبدأ الشرح وطال .. ووقف ذلك الشاب الأسمر الجميل ، وضع يده اليسرى في جيب سرواله ، وبصوت خطابي قال الباهي :

هذا جنون ، جنون، ثورة في فلسطين .

قلت : نعم ثورة في فلسطين .

قال : ضد الصهيونية والإستعمار والإمبريالية والرجعية و ... و ...

قلت : نعم ضد كل ماذكرت وأكثر ..

قال : بالتأكيد ، أنت وكل جماعتك مجانين .

واختلفنا ، اختلفنا بشدة وبحدة .. كان ذلك لقاؤنا الأول .. وكان ذلك خلافنا الأول .

بعد أسبوع ، وفي مطلع عام 1964 ، إلتقينا ، وعملنا معا في جريدة المجاهد .. بصحبة المنور حروش ، ويوسف فتح الله ، وعبد القادر قاسي . وضمن مجموعة رموزها محمد حربي وحسين زهوان و ... و

بالمناسبة ، يامنور ، من الذي قتل يوسف فتح الله في ساحة الأمير عبد القادر في الجزائر في العام الماضي . هل قتل باسم الجيش ، أم باسم قريش ، ولكن ... كان يجب أن يقتلوه ، لأنه كان مع الإنسان ، مع حق الحياة ، وحق الكلمة .

بعد عام من تلك اللقاءات ، وفي الأول من يناير 1965 انطلقت الثورة الفلسطينية المسلحة فوق أرض فلسطين ، لقد بدأ الجنون الفلسطيني .. وكانت جريدة المجاهد أول جريدة رسمية تتبنى الثورة ، ووجهت لها التحية بعنوان من الفاتح نوفمبر الجزائري إلى الفاتح من يناير الفلسطيني ..

وكان الباهي من أوائل المنتمين إليها ، وبدأت المسيرة الفعلية لمسيرة الباهي الفلسطيني .

لقد شارك الباهي في أغلب الأحداث الفلسطينية ، وتواجد في أغلب المواقع الفلسطينية .

في جوان 1965 حصل التغيير في الجزائر ، ورحل الباهي مع من رحل غربا .. إلى باريس . وبقينا على اتصال دائم .

في جوان 67 حصل الزلزال ، في مصر وسوريا

وفلسطين، واتجهت من الجزائر شرقا .. وبقينا على اتصال بواسائل مختلفة .

في آذار (مارس) 1968 حدثت معركة الكرامة ، وجاء الباهي إلى المشرق ، متنقلا بين قواعد الفدائيين في الأردن وسوريا ولبنان والعراق .

ويوماً ، خرجنا معاً من دمشق إلى اللاذقية ،حيث كان أكبر معسكر للفدائيين الفلسطينيين .

وعندما انطلقنا بالسيارة من دمشق ، قال الباهي .. اسمع يا محمد ..

وبدأ يقرأ الشعر العربي ، بدأ بالجاهلي ، ثم بصدر الإسلام ، والأموي ، وتوقف عند الشعر العباسي ، ولم يتجاوزه .. لماذا ..؟ نحن في موريطانيا لا نعترف بما كتب بعد ذلك من شعر .

وصلنا المعسكر ، وأقام الباهي بيننا أياما ، تحدث فيها عن تجربة جيش التحرير المغربي ، ثم الثورة الجزائرية ، وانتقل إلى التجربة الكوبية التي عايشها فترة طويلة من الزمن . ثم عرج على السودان .. وكان مذهلا في معرفته ومحللا في تحليلاته ، متواضعا في تجربته .

وعدنا ، ومنذ أن انطلقنا بالسيارة من اللاذقية ، قال

اسمع يا محمد : وبدأ يرتل القرآن ترتيلا ، ويفسره تفسيرا ، ولم يتوقف إلا في دمشق .

كان بحرا ، بل محيطا ثقافيا ، تراثا وحداثة .. نظرية وممارسة .

في آب ،(اغسطس) 1968 إلتقينا هنا في باريس ، وجئت كأول ممثل للثورة الفلسطينية .. وتشكلت لجنة العمل العربي من أجل فلسطين ، ضمت جميع الرموز السياسية والتنظيمية والثقافية العربية . وكان الباهي .. وكان لطف سليمان .. وكان محمد الشابي ، ولا أذكر الباقين ، وإن كان بعضهم موجود الآن بيننا أدام الله أعمارهم ومنحهم الصحة والعافية .

وكان كل الفلسطينيين على قلتهم .. وجاء الهمشري من الجزائر ، وبدأ العمل في الساحة الطلابية منطلقا من البيت المغربي حيث كان يقيم .

وصدرت أول مطبوعة عربية في تلك الفترة مجلة « آفاق عربية » ، وكان الباهي أحد محرريها إلى جانب العديد من الكتاب العرب ، وكان الموضوع الفلسطيني رئيسيا في تلك المجلة .

وكانت لقاءات وحوارات حول برنامج الثورة الفلسطينية ،

شارك فيها الباهي ضمن آخرين ، وكان فعالا في تنظيم لقاءات مع مجموعات عربية وفرنسية .

مكيم رودستون ، جاك بيرك ، بيير دو ميرون ، جيرار شاليان ، ميشيل بوفيلار ، أنيا فرانكوس ، جزيل حليمي ، كلود بورديه ، روجيه غارودي ، وآخرون .

وانتجت تلك الحوارات ، برنامج الدولة الديمقراطية العلمانية الذي أعلن من باريس في الأول من يناير 1969 .

في آذار مارس 1969 عقد المؤتمر الثالث للحزب الإشتراكي الموحد في مدينة ديجون ، وتم في المؤتمر أول لقاء مع الأمين العام للحزب ميشال روكار ، وكان الباهي ، والمهدي العلوي .

وفي 1970 شد الباهي رحاله شرقا ليعيش معنا أحداث أيلول الأسود ، يوما بيوم وساعة بساعة .

وفي صباح الثامن والعشرين في ذلك الشهر ، دخلت مقر الإعلام التابع للثورة في دمشق . وكان جمع كبير من الصحفيين ، وكان الباهي ، وكانت أنيا فرانكوس ، والسكون يلف المكان ، والوجوم يخيم على الجميع .

سألت : ماذا جرى ؟

قال الباهي والدموع في عينيه : الآن مات عبد الناصر . نعم مات عبد الناصر في ذلك اليوم بعد أن انقذ حياة زعامة المقاومة الفلسطينية ، وليبدأ تاريخ جديد ، في حياة المنطقة مازلنا نعيشه حتى الآن .

أستطيع أن أسترسل في الحديث عن الباهي الفلسطيني ساعات ، ساعات . كما وأستطيع أن أتحدث عن الباهي العربي ، الباهي الإنسان ، الباهي المثقف ، المشرد ، القلق .. والباهي الشهيد ، ولكن ..

قبل مغادرته الأخيرة بيوم واحد ، التقينا ، حدثني عن خطة التطوير في الجريدة ، تطوير في الشكل والمضمون ، تحدث عن ذلك بالتفصيل .. لقد وضع فيها كل تجربة حياته المهنية والفكرية .

قلت له : هذا جنون

قال : لماذا ؟

قلت : هذه ثورة في الجريدة ، وثورة في الجريدة يعني ثورة في التنظيم الذي يصدرها .. وفي مثل هذه الظروف والملابسات والصراعات التي نعرفها جميعا .. هذا يعني الجنون الكامل .

قال : نعم ، نعم ، أعرف ذلك ، ولكني سأفعل ذلك

بدعم الرفاق .. سأبدأ التغيير في كل شيء ، وسوف ترى .

وفي اليوم التالي غادرني الباهي .

وفي الأسبوع الثاني ، بدأ الباهي ثورته الموعودة . وفي الشهر الثاني استشهد الباهي .

قيل الكثير في رثاء الباهي ، وسوف يقال الأكثر .

ولكن ما لفت نظري ، تلك الرسالة التي وجهها محمد عابد الجابري إلى المكتب السياسي للحزب الذي ينتمي إليه الباهي والذي يصدر الجريدة التي استشهد على أبوابها الباهي ..

يقترح الجابري في رسالته تكوين لجنة تحقيق مهمتها تقصي الأسباب والظروف الصحيفة والحزبية التي قد تكون لها علاقة سببية من نوع ما بالإنهيار العصبي الذي أصاب الباهي ، والذي انتهى بنوبة قلبية حادة فارق معها الحياة في فجر يوم الثلاثاء 4 يونيو 1996.

مذكرا بأحداث مماثلة مر بها الجابري نفسه قبل الباهي بخمسة عشر عاما .

وفي هذا المجال بالذات أحب أن أضيف :

منذ الكشف عن الإجتماعات التي كانت سرية بين وفد

فلسطيني وآخر إسرائيلي ، في أسلو 1993 ، والإتفاق بين المجتمعين ، والذي عرف فيما بعد باتفاق أوسلو، والذي أهداه رئيس الوفد الفلسطيني لوزير خارجية إسرائيل شمعون بيريز بمناسبة عيد ميلاده الذي صادف ذلك اليوم .

وحتى جلسة إلغاء الميثاق الوطني الفلسطيني في غزة في الرابع والعشرين من شهر يناير الماضي ، حيث أهدى المجتمعون الميثاق الوطني الفلسطيني إلى رئيس وزراء إسرائيل شمعون بيريز في ميلاد إسرائيل هذه المرة .

بين هذين الحدثين أحصيت وفاة 82 كادر فلسطيني بالسكتة القلبية أو بالسرطان ، أو بكليهما معا . كما أحصيت حتى الآن عشرات الإصابات المرضية في صفوف الكادرات الفلسطينية ، في مواقع تنظيمية وجغرافية مختلفة . بما أصبح ما يمكن أن نسميه لعنة أوسلو .

وهذا مايدعوني لأن أتوجه باقتراح يضاف إلى اقتراح الأخ الجابري وهو تشكيل لجنة تحضيرية عربية لعقد ندوة مركزية لتكريم الباهي يكون أحد محاورها الأساسية هذه الظاهرة المرضية السياسية التنظيمية .

رحم الله الباهي ●

« في كل الانتفاضات العربية في أي جزء من الوطن الكبير ، من جبال طوروس حتى منابع النيل ، ومن موريتانيا إلى البحرين ، كان الباهي محمد حاضراً دائماً. »

استراحة المحارب ..

نصر الدين البكار*

منذ أن تشرفت باعتناق الفكر القومي العربي التقدمي والعمل من أجله ، كان الشوق - ولايزال - يهزني إلى الإلتقاء بالمناضل الذي يتعاظم عنده الإهتمام بوطنه العربي الكبير - وقطره الصغير طبعا جزء منه لا يتجزأ - إلى درجة الغليان ، فيما يتراجع عنده الإهتمام بقطره وحده إلى درجة الصفر .

ومن حسن طالعي - وأشهد صادقا بذلك - أنني رأيت في

* معلم من ليبيا

الباهي محمد ، رحمه الله ، مثلي الأعلى من بين مئات القوميين العرب الصادقين الذين بحثت عنهم ضالتي تلك فوجدت .

الآن وقد غمر كل جزيء من جسمه الطاهر تراب جزء من الدولة العربية الواحدة الكبرى التي حلم بها ذلك المحارب الشجاع وأحب ، لا يمكن لمن عرفوا الباهي إلا أن يبكوا على سوء حظ هذا الوطن الكبير ، بموت واحد من أشجع وأخلص وأشرف رجاله خصوصا في هذه الليلة الظلماء الطويلة من الزمان العربي الرديء ، الذي يفتقد فيها أي شعاع من ضوء بدر حتى ولو كان شمعة .

ضمن الصراعات الطبيعية التي تنشأ لدى أي عمران بشري ، بين مجتمع النهر ومجتمع المطر ، كنت دائما أستعمل إسم الباهي محمد كمثل جيد على ضحالة فكر وسلوك بورجوازية المدينة التافهة ، حين تدين كل أبناء الصحراء بالتخلف .

لا أجد في وصف الباهي محمد ، كلمة أصدق من كونه كان موسوعتين : واحدة عربية والثانية فرنسية ، فلقد كان امتلاكه لناصية اللغتين ، وتمكنه من ينابيع ثقافة الأمتين ، سر إبداعه كواحد من ألمع الكتاب الصحفيين الذين يمكن

أن يضيفوا إلى ثقافتك الكثير ، سواء أكان ذلك في الصحافة العربية أو الفرنسية .

وعدا ذلك ، فإن بداية الباهي الوطنية الممتازة كمقاتل شرس في جيش التحرير المغربي .. في الفترة ما بين نفي المغفور له الملك الوطني الراحل محمد الخامس وعودته . تركت بصماتها عليه بعد ذلك حين امتهن الصحافة ، وجعلته بحق مقاتل قلم شرس ، لايهن ولا يضعف ولا يستسلم ولا ينهار .

في كل الإنتفاضات العربية التي حدثت في أي جزء من الوطن الكبير من جبال طوروس حتى منابع النيل ، ومن موريتانيا إلى البحرين ، كان الباهي محمد حاضرا دائما ، ليس فقط بتغطية صحافي نشيط ، ولكن بتحليل قومي ملتزم ، ومن منا لا يذكر أنه الصحفي العربي الأول الذي حضر إلى ليبيا ثالث يوم بعد قيام ثورتها عام 1969، ومن منا لا يذكر أنه الصحفي العربي الأول الذي دخل إلى الجزائر ، صحبة أول رئيس لها غداة استقلالها عن فرنسا عام 1962 .

في آخر لقاء لي معه يوم 96/4/14 ، حين ودعني على باب شقته الباريسية المتواضعة الأثاث والشكل ،غنية

الكتب والمضمون . لم يدر بخلدي أنه الوداع الأخير ، لكنها سخرية القدر الذي كان صديقي الباهي واحدا من ألمع من سخروا به قبل أن يسخر بهم ! ●

« الكاتب الحقيقي ، لايمكن أن يصبح أداة للسلطة .. أي سلطة كانت. »

أجراس العودة

شاكر نوري *

يأتي الموت ، على الدوام ، بارداً كالصقيع أو كالمعدن أيام الشتاء .. موت الباهي محمد ، الكاتب والصحافي والمفكري المغربي ، جاءني عبر صوت متألم ، التقطت ذبذباته الضعيفة آلة التسجيل التي أشغلها وقت غيابي عن المنزل ، وكأن هذه الآلة تريد أن تؤكد حضوري الرمزي .. عبر صوتي أيضا .. وتذكرت صوت الباهي محمد على الشريط ذاته ، لأنني لم أغيره منذ فترة ، بل أكتفي بمحو الصوت ليحل محله صوت آخر .. ولم

* كاتب وصحافي عراقي .

أكن أدرك إلا في هذا المساء أنني محوت من الوجود كنزا .. هو ذلك الصوت المبحوح ، الرخامي ، الصحراوي ، الذي يريد أن يذكرك بأنك لا تزال موجودا .. فهو لا يسأل عنك عندما يكون في حاجة إليك ، بل عندما تكون أنت في حاجة إليه ، في حاجة إلى سماع هذا الصوت .. الذي توارى مثيله في أيامنا الحاضرة . ولعلني ، وما أصعب هذه اللحظات ، التي يكون فيها قدري أنا الماسك بالقلم ، والذي أكتب عنه ماسكا بالتراب ، أتذكره في موقفين إثنين ، عندما كنا نعمل سوية في جريدة " المحرر " ، وهو يكتب مقالاته النارية باسم مستعار ، رأيت سحابة حزن تهيم على وجهه ، وسرعان ما تذكرت خبر موت ابنته الكبرى التي سحقتها عجلات سيارة مجنون في المغرب ، وعلى ما أتذكر أنه دعاني في تلك الظهيرة إلى مطعم في الحي اللاتيني ، ولمح لي في تلك الأثناء بأن كل الأشياء فانية في هذه الدنيا . وتذكرت ما قالته لنا الصديقة المغربية التي تعمل في السلك الدبلوماسي والصحافي منذ أعوام ، وهي صاحبة الصوت الذي سجل على آلة التسجيل نبأ موت الباهي ، وهي تقول لي ، لم أرد أن تقرأ الخبر في الصحف ، إذ أخبرتني بأنه أجرى عملية في القلب . ومازالت صورة الرهبة

تستولي على الباهي وقد ذهبنا ، مع زوجتي لتوديع الكاتب الجزائري رشيد ميموني في مستشفى « كاشان » ، حيث ألقينا نظرة الوداع على وجهه الظاهر من نافذة زجاجية محفورة في جنازته المسجاة على الدكة الأسمنتية .. وها هو الباهي يتبدل في الحال ، وتستولي عليه حالة من الذهول ، ولم نتركه يذهب وحيدا ، بل طلبنا منه المجيء معنا لتناول العشاء . وقد ذهلت عندما طلب مني أن أغلق التلفزيون وأطلق آلة التسجيل لسماع أسطوانة للقرآن الكريم .. وظل حتى منتصف الليل يجود القرآن ، وتبين لي بأنه يحفظ القرآن عن ظهر قلب . لم أر الباهي حزينا لهذه الدرجة في تلك الليلة ، ليلة وداع رشيد ميموني .. وقال لي متأثرا : ياليتني لم أر وجهه ! ذلك لأن الموت تجسد له في مظهره الحقيقي وليس التجريدي .

بعد حرب الخليج والهجمة البربرية الأمريكية على العراق ، تخلى الباهي عن الصحافة تقريبا ، بعد أن نشط في « اليوم السابع » و « الإتحاد الإشتراكي » .. وما كان استمراره في الكتابة إلا تواصلا رمزيا لمهنة عشقها منذ نعومة أظافره . كان متألما لحرب حطمت الكثير من الأحلام ، ولكنه لم يكن متفقا مع منطق هذه الحرب من

الطرفين .. ورغم أفكاره القومية الإشتراكية التي آمن بها حتى لحظة موته ، لم يكن يتوقف من توجيه النقد للسلطة التي تسعى لإنجاز أفكاره ، ولهذا السبب فقد وظيفة مدير وكالة الأنباء العراقية في الثمانينات بباريس ، لأن روحه النقدية كانت تسبق دائما روحه المطيعة . وكان يردد على مسامعنا في جلساته بأن الكاتب الحقيقي ، لا يمكن أن يصبح أداة للسلطة .. أية سلطة كانت ! وفي اللحظة التي بدأت فيها شراء ذمم الصحافيين ، أي بعد حرب الخليج ، ابتعد هو عن الأضواء ، ضاربا بعرض الحائط كل المغريات والعروض والإقتراحات ، مفضلا العمل موظفا مترجما ، لتسديد أقساط البيت الذي اشتراه منذ عشرين عاما . ملكيته الناقصة الوحيدة !

كان يقيم في باريس جسديا ، فيما يعيش بقلبه في موطنه المغرب ، حتى ولو شاع عنه بأنه ينحدر من موريتانيا.. وهذا ما يثبت مرة أخرى بأنه عربي أصيل ، وليس مؤطرا في جنسية ابتدعها الآخرون لنا ! وهو بالأحرى كان يريد أن يعيش في جميع الأوطان العربية دون استثناء : الجزائر ، العراق ، المغرب ، وغيرها . وجديته الظاهرة كانت تخفي في طياتها فكاهة ساخرة مرة ، تجعله ضيفا خفيف

الظل عن الجميع . عاش الباهي محمد وأهدابه معلقة بحلم يرى فيه المغرب العربي الكبير مزدهرا .. والوطن العربي بأكمله متحررا.. شقته الباريسية ، الكائنة في الحي الخامس عشر من باريس ، كانت ولا تزال مكتظة بالكتب .. والمشاريع .. كان يحب شراء الكتب إلى درجة الشهوة .. وحب الإمتلاك .. امتلاك كل المعرفة التي كانت تهرب من بين أصابعه ، لأنه كان يريد أن يستحوذ على جميع فروعها ، وهو طموح سعى إلى تحقيقه مبكرا .

هكذا عاش الباهي محمد ممزقا بين الأدب والسياسة والفلسفة وعلم الإجتماع .. كما عاش ممزقا بين المدن : باريس ، الدارالبيضاء ، الجزائر ، والصحراء ذلك العالم المجهول الذي لا حدود له ، تماما كالمعرفة الواسعة التي كان يطمح إليها .. وكذلك عاش ممزقا بين عائلة تفضل العيش في موطنها ، وهو لا يستطيع أن يبتعد عن مصادر ثقافية .. لكن الوطن لابد وأن يقرع أجراس العودة ، فذهب إليه طائعا ، وكأنه كان يعرف بأنه لا يريد أن يسقط وحيدا في شوارع باريس ، لا يعبأ به المارة العابثون .. رغم أن النوبة القلبية لا تعرف الحدود الجغرافية ، ولا ترحم القلب مهما كان كبيرا ●

« كان يتعامل مع باريس ، بما إختزنته ذاكرته الصحراوية. »

وشم آخر في ذاكرتنا

فيصل جلول *

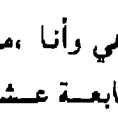

نمشي ، الباهي وأنا ،من شارع «توكفيل » في الدائرة السابعة عشرة في باريس ، باتجاه بولفار «مونبارناس » في الدائرة السادسة ، عندما تمتمت بصدر: « كليني لهم يا أميمة ناصب .. » وإذا به يكمل العجز : « ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب » ، ثم يكمل وينتقل إلى قصيدة ثانية وثالثة ورابعة ... كان يستعيد القصائد وأبيات الشعر كما لو أنه حفظها غيبا في

* كاتب وصحافي لبناني

العشية ، ثم حدثني عن موريتانيا مسقط رأسه ، وحفظ الشعر ، مؤكدا أن في هذا البلد شعراء بعدد سكانه البيضان وربما بعض السودان ، وكانت المرة الأولى التي عرفت فيها هذه الحقيقة .

في الصحيفة حيث كنا نعمل معا ، قرر ذات يوم أن ينقل معرفته بباريس إلى قرائنا ، غاب لأسابيع دون أن نعرف ماذا يفعل ؟ وأين هو ؟ ثم عاد ومعه سلسلة مقالات بعنوان: « اكتشاف باريس » كتبها بمنهج حفظ القصائد العمومية القديمة . وكانت « باريس » محمد الباهي تختلف عن باريسنا وباريس الذين تعرفهم ، وكان لابد من أن نقطع عليه هذا الإسترسال ، لأنه صرف عشرات المقالات ، في وصف المدينة تحت الأرض . وقلنا إنه قد لا يصل إلى سطح باريس قبل نهاية القرن . وكان كلما قاطعناه في استرساله اللفظي أو المكتوب ، لا يتذمر ولاينصرف عنا . فأنا على الأقل لم أره يوما متذمرا أو سوداويا ، أو يعاني من مأساة، أو أزمات نفسية حادة .

وعندما كان يبدأ ويمشي .. لا يعرف أحد متى ينتهي ، ويسترسل في المشي دون أن يشكو من التعب ، حتى لتخال أنه قادر على التجول في باريس ليلا ونهارا بدون انقطاع ، شرط ألا تقاطعه ، وتدعه يتأمل ويفكر كما يشتهي .

كان يتعامل مع باريس ، بما اختزنته ذاكرته الصحراوية ، وبدا لنا هذا التعامل فعالا لدرجة أنه كان يمسك بهذه المدينة العصية ، وبما يدور فيها ويخضعها ويطوعها حين كانت تخضعنا وتطوعنا ، وتطحن مشاعرنا وأحاسيسنا وتقزمنا ، لو احتفظنا بأنوفنا الشامخة .

في باريس كان محمد الباهي العربي الوحيد الذي يستطيع أن يتحدث مع كل العرب المعروفين ، مشارقة ومغاربة، وبكل اللهجات ، وكان قادرا على الإنفعال والتفاعل مع كل النكات والأمزجة والملاحظات والشكاوي ، يعرف المغاربة والموريتانيين والجزائريين والليبيين والتونسيين ، ويعرف العراقيين والمصريين والسوريين واللبنانيين والأردنيين والفلسطنيين واليمنيين والخليجيين ، ويعرفه كل هؤلاء ويسألون عنه بعضهم البعض ، كلما غاب فجأة ودون علم سابق ، وعندما يعاود ظهوره بعد طول غياب، كنت تشعر وكأنك رأيته البارحة ، ويعاتب على عدم الإتصال به على رقم هاتف ينقطع ويتغير ، أو لا يرد ، وتصرف النظر عن عتاب محبب يدخل في لعبة الصحبة والتآنس، ثم تتظاهر بأنك جاد في تسجيل رقم هاتفه الجديد .

في النصف الثاني من شهر آذار ـ مارس الماضي ، طاردني الباهي باتصالاته الهاتفية ، وبإيقاع متسارع وغير معهود ، كان يستعد للعودة « نهائيا » إلى المغرب ، لتسلم مسؤولية التحرير في جريدة « الإتحاد الإشتراكي » ، وكان يرغب في مساعدة متواضعة لم أعتدها ، لاعتقادي أن « باهينا » لا يحتاج للمساعدة ، وأنه ليس من النوع الذي يستقر وينتظر أن يأتيه أصدقاؤه ومعارفه بأوراقهم .. كي يصنع منها صحيفة ، لكن إلحاحه وجديته المتواصلة والمفاجئة دفعتني إلى القول : أرسل لي الصحيفة وسأرى إذا كنت قادرا على مساعدتك أو طلب المساعدة من آخرين .

في 18 آذار ـ مارس الماضي ، فوجئت باتصال هاتفي من الدكتور محمد عابد الجابري ، وكنت أستعد للسفر إلى صنعاء في اليوم التالي ، وبادرت لموافاته في مقهى صغير بالقرب من المدينة الجامعة في الدائرة الرابعة عشرة في باريس ، ولحسن الحظ كان الباهي برفقته ، وكان الجابري يواصل علاجا مع أخصائيين في المستشفى الأمريكي ، الأمر الذي دفع صديقنا المشترك أحمد المديني إلى ملاحظة أن « فلوس العقل العربي تذهب دائما إلى العقل الأمريكي » ، تذكرنا هذه الملاحظة مرة أخرى ، فاندفع الباهي يضحك

ويضحك حتى انتفخت أوداجه ، وكان يعود للضحك بعد فاصل من النقاش والحديث الجدي .

.. قبل أن أنصرف مضطرا سألني الباهي أن أحضر له من صنعاء كتبا عن الصحراء !! « أي شيء عن الصحراء » سألت لماذا ؟ فقال « أحضر كتابا عن الصحراء » !! عاد إلى المغرب وعدت من صنعاء إلى باريس ومعي كتاب عن « الربع الخالي » لا أعرف إلى أي عنوان أرسله ، فصاحبه لا يحتاجه بعد الآن .

عندما مات هارون بغدادي وقال جوزف ، صديقه الحميم ، سيتسع الفراغ وينتشر من حولنا ، ومع غياب الباهي ، صديقه وصديقنا الحميم ، يزداد الفراغ اتساعا ، وتوشم ذاكرتنا بوشم آخر ●

« بوفاة محمد باهي ، تكون الصحافـة العربية ، فقدت نمطاً خاصاً
من الكتابة التي لا تزال تسير عكس التيار. »

« كيف حال الأمة ؟! »

سامي كليب *

ننتظره يمر علينا بين الحين والآخر ، حاملا أكياس البلاستيك المليئة بالكتب والصحف ، أو قصاصات المجلات الأسبوعية . كان يأتينا ضاحكا ، يبادرنا إلى السؤال الذي ما فارق يوما فاهه « كيف الأمة ؟ » . وكنا نلجأ إليه كلما استعصى علينا خبر ، أو قضية تطال أصغر عائلة في المغرب العربي الكبير أو أكبر قضية في الوطن العربي بكامله . كان موسوعة كاملة متنقلة ، لا يوازيها إلا تواضعه .

* مدير مكتب جريدة (السفير) بباريس

باهي محمد ، المثقف حتى النخاع ، المناضل السرمدي ، العلماني الحافظ عن ظهر قلب في القرآن وشروحاته ، الصحراوي الذي يقول آلاف الأبيات الشعرية في دقائق معدودة ، الإنسان الذي بقيت الإنسانية إحدى أهم خصاله .

أزعجنا للمرة الأولى أمس ، وما عادته أن يزعج أحدا ، نزل خبر وفاته علينا كالصاعقة ، ربما لأننا اعتقدنا أن لا مرض القلب ولا الغيبوبة ، قادران على المساس بالرجل المرهف ، الذي بكى أنهارا ، حين ماتت إبنته منذ بضعة أعوام بحادث سير ، قبل ساعات قليلة من لقياها على الأراضي المغربية ، والذي سرعان ما عض كعادته على الجرح ، وعاد يبتسم ويسأل : « كيف الأمة ؟ » .

عرفه مثقفو الشرق الأوسط منذ دراسته في دمشق ، وكتاباته في الصحف المشرقية ، سيما منها «السفير » ، وعرفه الجزائريون قادما على الدبابة نفسها التي قادت الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين من تلمسان إلى العاصمة ، أما أبناء المملكة فإنهم كانوا يعرفون أخبارا متقطعة عنه ، فتارة يمنع من دخول المغرب فتختفي أخباره ، ثم يسمح له بالعودة فتملأ مقالاته صحيفة الإتحاد الإشتراكي ، أو يتكئ على عقوده الخمسة ، وصحته

البدنية على وهن ، ويساهم في التعبئة للإنتخابات أو في التعبئة ضد الإنتخابات .

دعانا باهي إلى عشاء « كسكوسي » مغربي في منزله أو كما كان يسميه في « منفاه » في باريس ، لكنه اسعجل العودة إلى المغرب ، واتصل بنا يبلغنا أنه تولى منصب المستشار الإعلامي في الإتحاد الإشتراكي ، اتصلنا لنهنئه بالعودة إلى الوطن الذي طالما حلم بالإستقرار فيه بعد ترحاله الطويل ، فأخبرونا أنه رحل دون عودة وأن في غرفته بالمستشفى صدى للسؤال « كيف الأمة » ؟!

بوفاة باهي محمد تكون الصحافة العربية فقدت نمطا خاصا من الكتابة التي لا تزال تسير عكس التيار ، فهو ماأراد يوما أن يعمل في « صحف العصر » ، وإنما كان يقول : « أنا بدوي ، وسأبقى على هذا النحو » معبرا عن رفض مطلق لربط الكتابة بالقيمة المالية المدفوعة مقابلها . عزيز النفس كان ، رغم ضيق الحال ، وآثر أن يعمل مترجما في السفارة الليبية بباريس قبل عودته إلى المغرب ، ليكسب ما يسد به رمقه .

« ماهي أخبار بيروت ؟ هل وصلتك «السفير» ؟ ماذا يفعل أولاد الكلب الإسرائيليون في الجنوب ؟ » أسئلة كان

يضيفها باهي محمد يوميا على سؤاله السرمدي « كيف حال الأمة ؟ » .

ليتنا أيها الصديق الأخ الأستاذ ، نستطيع الجواب . فصحة الأمة هي تماما ، كما كانت صحتك قبل الرحيل في شبه غيبوبة ●

« أمثالك يخرج الوطن وتزحف الصحراء ، لاستقبالهم ومبايعتهم »

إبـن الـــورد

إكرام شمص شرارة *

... الباهي محمد

أيها الأصدقاء .. أسألكم الرحمة

« آواه منكم وآه ما أقساكم »

تغـادرون تبـاعـاً ... وعلى غـفـلة ... من دون كلمـــة وداع ...

فـمـا الذي اقـتـرفـناه يا إلهي ... حـتى نـكابر كل هذا العذاب ... ؟

* صحافية لبنانية .

إني أصرخ مع محمود درويش :

يا أصدقائي لا تموتوا ... انتظروني سنة أخرى ... سنة .

وأبكي ... كلما ودعت أحدكم ... بمرارة من يودع صديقه الوحيد ...

من قال ... ؟ من يصدق ... ؟ أن الباهي إبن الورد يموت ؟؟

هذا الصحراوي المغاربي الذي يمم شطر الشرق منذ فتوته ... ليتعلم ... وليشهد على عودة الروح إلى جسد الأمة وإرادتها ... وولادة وعد جديد « آلا أني لا أكذب بالبعث ولا بالقيامة » كما كان يرتل مجودا ... وحمل صليبه وقنديله وصدقه منذ الخمسينات ... وسرى في الأقطار مبشرا ... محاربا ومعلما ... « بلاد العرب أوطاني من الشام لبغداد » .

فيا أيها « الدينوصور » النادر الثمين .. من الدعاة والصديقين البررة .. الذي يكاد ينقرض ... كنا نظن أنك سترثينا جميعا ... يوم أوليناك في المنافي ، إمارة « الجمهورية الفاضلة » للعصاة والصعاليك ... العصاة على كل تطويع وتطبيع ، المتربصين بالغول والعنقاء على امتداد تخوم الأمة ، وثغور الوطن ...

فيا صديقي ناجي العلي .. ما أشد الظلمة والوحشة وأحلك هذا الليل !!!

هل أرهقك العشق الصوفي للقضية ، ومزق شرايين القلب هذا الهوان الذي نحن فيه ... فأدرت ظهرك كحنظلة مزمجرا ؟.

« أنا حتفهم ألج البيوت عليهم أغري الوليد بستهمهم والحاجب » أم أنك استسلمت وقتلتك الخيبة ؟... أذكر كيف رثيت أبطال إيتماتوف في رواية المعلم الأول « Les Premier Maiteres » ، أولئك البسطاء الذين شيدوا بسواعدهم وإيمانهم وتضحياتهم ، صرح الإتحاد السوفياتي العظيم ... وكيف حزنت لخيبتهم واغتيال أحلامهم ساعة الدمار الرهيب ... تراك كنت ترثي خيبتك أيضا ..؟! » .

يا أخي الباهي ... أمثالك لا يموتون ... الذين نحبهم لا يموتون ... وما أكثر أحبائك ... أمثالك يبقون في البال حضورا معذبا مؤنسا ، يشاركنا اجتراح المستحيل .

أمثالك يخرج الوطن وتزحف الصحراء لإستقبالهم ومبايعتهم كما فعلت بالأمس جماهير المغرب ... خرجت لوداعك بطلا وشهيداً .

فمتى يا أخي الباهي نكرم أبطالنا في حياتهم ، ونكللهم بما يستحقون من حب وتقدير وولاء ...

وداعا أخي الباهي وإننا لنعاهدك الصدق والوفاء ومتابعة الطريق ●

« لقد كنت وطناً لنا جميعاً في الغربة . »

بطـاقـة السفـر

حميدة نعنع*

وداعا يا رفيق غربتي .

إنني أودعك يا باهي ولا أرثيك ، فأنا منذ تلقيت النبأ الفاجعة ، لا أجرؤ أن أصدق لحظة ، أن الموت أدركك . هل عملتها فينا ومت فعلا ؟ هل تعبت من التجول في جراحنا فقررت أن تجمع حاجاتك القليلة ؟ : كيس كتبك ... شنبك ..

* صحافية سورية .

أسرارك .. وتمضي لأنك لم تعد قادرا على أن تشهد على هزائمنا ، حيث كل خطوة تقود إلى خلل . وداعا أيها الرجل الذي اختصر في شخصه أمة من المحيط إلى الخليج .. كنت تمتد من الليل العربي إلى الليل العربي ، ومن الفجر إلى الفجر ، ومن الحيرة إلى الغضب ... ومن التساؤل إلى حافة الكفر بكل شيء . يارفيق الشكوك والوعي والغربة . أعرف أنه لم يعد بوسعك أن تنظر ببراءتك إلى هذه الأمة ، لأن زمن براءتك قد اغتيل منذ سنوات . في السنوات الأخيرة لم يعد في وسعك أن تتحدث عن مشاعرك إلا بالقهر والغضب ، ظللت تملك القدرة على الغضب حتى آخر لحظة من حياتك ، وهذه ميزتك ومجدك . ولكن الغضب ياباهي قد يوديك حتفك ؟.

وتجيبني هازئا ؟ وهل أنا قابل للموت؟ هل لي حتف ؟..

ولكن الموت لا يزح ، جاءك في غفلة عنا جميعا وأنت في وطنك .

أقول وطنك مجازا ، لأن كل أرض عربية كانت وطنا لك، وكل جرح عربي هو جرحك ، هل كان صدفة أن تلقى وجه ربك يوم 5 حزيران ـ (يونيه) ـ ؟ وهل كان صدفة أن يعتبرك قومك شهيدا ؟ لقد كنت شهيدا منذ زمن ، ولكنك

قررت العيش بيننا لتمنحنا القدرة على الحياة . من ألفية ابن مالك ولدت تحت خيمة في صحراء موريتانيا ، ولدت من شجرة ـ من سنديانة عشيقة هناك على ضفاف نهرالسنغال ، ثم تحولت إلى عروة بن الورد ، ركبت فرسك ورحلت باحثا عن الآية ووحدك .. وحدك من آمن أنها موجودة ، وأنها حية ، في حين كنا ننفيها ونبكيها .

ترحل ونحن في أشد الحاجة إليك ؟

أتوهم أنك رحلت ؟ لكنني أشعر أن الهواء حولي لا يزال مسكونا بصوتك وضحكتك البدائية ، وسخريتك اللاذعة القادمة من قصائد الأجداد .

لا أستطيع أن أكتب مراثي عنك ، سامحني ياباهي إن كنت موجزة ، فحزني فارع فارع كشجر النخل . لا تصدق أبدا كل من رثاك ، إنهم ينتظرونك جميعا ، ينتظرون عودتك وهم واثقون أنك سوف تعود قريبا ، سوف تقفز روحك إلى أرض الوعي من جديد ، وستُسدل على موتك ستارة شبيهة بالأحجية .

لقد كنت وطنا لنا جميعا في الغربة ، فنسينا في حضورك أننا غرباء ، ولكنك كما اخترت حياتك : الوطن ، اخترت مكان موتك ، وأردت أن تدفن حيث تشاء ، إلى جوار

رفاقك شهداء حرب التحرير ، وأن يحمل نعشك أبناء الصحراء ، ويخرج لوادعك الوطن كله .

ولكنني رغم كل الصور التي رأيت ، والصحف التي قرأت، والمراثي التي سمعت ، ماأزال أتوهم أنك رحلت .

فوداعا مؤقتا إلى الغد ، لنلتقي في المقهى الذي تعرفه كي نتذكر أصدقاءنا ، ونتأمل في حالة هذه الأمة . تماما كما كنا نفعل من قبل . اشتر إذن بطاقة السفر وعد غدا إلى باريس فكلنا بانتظارك ●

« لا يمكن لحكومة ديمقراطية أن تستمر ، إلا في جو الفضيلة . »

مشعل الصمود

فريد النعيمي *

أصدقائي الأعزاء

كما لا يخفى عليكم كان أخونا العزيز علينا جميعا بالنسبة إلي ، ومنذ سنة 1965 ، أكثر من صديق ورفيق دائم ، بحيث كان أيضا شريكي في حلم جميل ظل يراودنا ، هو الأمل، وفيما يأتي به كل صباح جديد من خيبة أمل ، تفرضها قساوة الواقع .

لا أدري هل يجدر بي أن أذكر أن محمد باهي ، كان

* كلمة الصديق الحميم للفقيد بباريس ، أمام الحاضرين في حفل إحياء ذكراه الأربعينية .

منذ شبابه الأول ، يكرس حياته للنضال من أجل تحقيق الحلم التالي : خلق مجتمع تُضمن فيه المساواة التامة والديمقراطية الحقة ، ليس فقط في المغرب ، وإنما في كافة الأقطار العربية .

ولم ينطلق في تحقيق هذه الغاية من استخدام المجال السياسي ، وإنما ظل هو نفسه في خدمة السياسة ، ملبيا في ذلك الرغبات الدفينة لحس شاعري ظل محتجبا في دواخله ودون أن يتساءل يوما عما سيجنيه هو من خدمة هذا الهدف النبيل ، تماما كما يقوم الشاعر بخدمة اللغة عن طريق ابتداع الكلمات ، دون أن يتساءل عما يجنيه هو من خلق الكلمات .

وعلى الرغم من خيبات الأمل التي جاءت مع الأحداث التي كان شاهدا عليها ، والتي حمسته في البداية قبل أن تصبح كارثية في نظره ، فإن باهي لم يفكر يوما في التخلي عن درب النضال .

في التكوين السيكولوجي لشخصيته ، حضور قوي لصعوبات مرحلة الطفولة التي كانت أقرب إلى العصور الوسطى منها إلى عصر الكهرباء ، وبالتالي فهو لم يكن مؤهلا لمغادرة هذه الطريق والتخلي عن الحلم الموصل إلى حديقة الأمل . أي إلى مجتمع تسود فيه المساواة أكثر ،

بدعوى أن من سبقوه في أمصار أخرى ، قد ضيعوا هذا الأمل .

غير أن هذا لم يكن يعني أن تقدمه في السن ، واكتسابه لتجارب متراكمة ومشاهدته للتحولات التي عرفها العالم ، وغموض الآفاق والتوترات التي كانت بلدان الجنوب مسرحا لها ، لم تؤثر على نظرته للحاضر وللمستقبل .

ولا أعتقد في هذا الصدد أنني أحيد عن جوهر تفكيره إذا ما قلت بأنه ، على خلاف تفكيره في مرحلة الشباب ، كان يرى أن التفاعل مع التاريخ والواقع ، هو الذي يعطي الأشخاص والشعوب ، فرصة تحديد مساراتهم عوض استعجالها والضغط عليها ..

لم تكن مفاهيم المساواة الإجتماعية ، والتقدم والديمقراطية بالنسبة إليه ، وخلافا لتفكيره في مرحلة الشباب ، مفاهيم مطلقة كوديان كبيرة تسافر عبرها الشعوب على امتداد التاريخ ، لتتحكم فيها بعد ذلك ، وتسيطر عليها بشكل إجمالي ونهائي ، وإنما كان يعتبرها معطيات أساسية تاريخية تتفاعل معها الشعوب ، وتصوغها وفق خصوصيات وتعديلات معينة .

على المستوى الفكري ، كان باهي متفتحا على مختلف التيارات ، وهو وضع جعله يعادي فكرة رفض أخذ الدروس والعبر مما يجري خارج الحدود .

على المستوى الإنساني كان باهي يعيش كنهر هادئ ، ولم تكن تحركه أبدا رغبة لم يستطيع تحقيقها . حياته كانت إذن خالية من التفاخر والتباهي . كان تلقائيا في عزمه ورباطة جأشه . وإذا كان قد عرف بعض ضروب المعاناة في عمق حياته ، فإن ذلك لم يكن أبدا من أجل أسباب مادية، وإنما في سبيل الحب الجليل للإنسانية ، وبشكل خاص للقارة الإفريقية .

لقد كان محمد باهي في الحقيقة ، صحافيا ممتهنا ، وكان ثالثيا بالنبل والقناعة ، وملاحظا يقظا للواقع الدولي بالموهبة والارتباط . ومن ثم لم يكن بوسعه سوى أن يتألم وهو يرى الدول الإفريقية الشابة ، تتدمر بالحروب الأهلية وكل المآسي التي تعانيها الشعوب المستضعفة . وتجنب الإنسياق وراء النشوة الوقحة لدول الشمال التي رفعت عاليا شعارات البحث عن الربح والمنافسة الفعالة . وكانت لباهي أسباب عديدة للشعور بالمرارة ، لاسيما وأن بعض العناصر من النخبة في دول الجنوب ، قد تسرب إليها الخطاب الذي يغلف شهية الذئاب في سحابة كثيفة من العبارات

والأساليب ، التي حرفوها عن مضامنيها الحقيقة . ذلك أنه إذا كانت الضجة المحيطة بمفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان ... قد أفضت إلى وقوع مآس عديدة في إفريقيا ، فإن متاهات هذه المبادئ لم تحدد أبدا بصورة نهائية . ولكن باهي كان ينتمي إلى أولئك الذين يعتقدون بأنه لا يمكن غرس الوردة ، وضمان الحياة لها في مناخ جاف .

وبفضل ثقافته الواسعة ، كان باهي يدرك من خلال ما عرفه عن تاريخ الأمم الأوربية نفسها فقط ، أن الشيء الأكثر صعوبة ، هو فرض الديمقراطية وتجذيرها ، وليس وضعها وإنشاؤها .

فالثورات العديدة التي شهدتها هذه الأمم ـ لاسيما فرنسا ـ والتحولات الكثيرة والدساتير المتلاحقة التي عرفتها شعوبها خلال قرن واحد ، جعلت أولئك يعيبون على العرب والأفارقة عدم وصولهم إلى صورة الديمقراطية على الشكل الذي وصلوا إليه هنالك في وقت ما .

كان باهي يرى أن فضيلة أي دستور ، بما أنه قانون رئيسي ، هي إعطاء قدسية قانونية وحقوقية لتغييرات الحقائق الجاري بها العمل في بلد ما ، والتي انتهت العقليات الجماعية بقبولها .

إذا كان باهي صاحب نزعة إنسانية ومدافعا صلبا عن الحريات العامة والديمقراطية ، فقد كان كذلك معروفا بالتهامه للكتب ، سواء تعلق الأمر بالأخبار التي تفرضها عليه مهنته كصحافي ، أو بالكتاب الكلاسيكيين أصحاب أكبر النظريات الفلسفية والسياسية ، كمونتيسيكو الذي يبدو أنه استوحى منه مقولته : « لا يمكن لحكومة ديمقراطية أن تستمر إلا في جو الفضيلة » ، ليحدد تصوره النظري لمفهوم الديمقراطية . غير أن الفضيلة لا يمكنها الصمود أمام الآثار الخبيثة للفقر والبطالة والشك .

وفيما يتعلق بسجاياه ، فإن باهي كان دمث الخلق ، كثير التواضع . وباختصار فقد كان اشتراكيا ، وبقي كذلك إلى أن رحل إلى دار البقاء. ولهذا فقد كان دائما يرفض قبول أو تفضيل الفكر الليبرالي المتطرف ، وتنازل الدولة عن سيادتها لصالح سيادة السوق وقوانينه الشرسة كحرية المنافسة ، وسيطرة قانون العرض والطلب كمعيار وحيد لتحديد أثمان الأشياء وعمل الإنسان.

لقد كان يرفض أن يعتبر الإنطواء على الذات حالة للتطور ، ففي نظره ما ذلك إلا نوع من إيديولوجيا الليبرالية المتطرفة ، تهدف إلى إضفاء المشروعية على رفض الخاصية

العالمية للقوانين داخل حدود الدولة ، وهذا يعني إنكار سيادة الشعب والدولة . لقد كان يرفض الخطاب المتطرف ، كما رفض الإعتراف للمجرمين المفسدين للوعي الجمعي لشعبنا بأي حق للإستحواذ ، عن طريق العنف ، على المرجعية الموجهة إلى عمق وعي جماهيرنا الدينية بالنظر إلى سمات « الإسلاميين ».

لقد كان باهي رجلا شجاعا . فرغم رفضه للإثارة الموجهة عن بعد أو اللاإرادية . فقد كان مع ذلك أحد أولئك الذين صدموا للتجاهل الذي قوبل به تاريخ الإسلام وتسامحه من طرف أولئك الذين يعتبرون أحد الكتب المثيرة ، بأنه أول كتاب من هذا النوع في تاريخ هذه الديانة .

إن تبحر باهي في المعرفة ، وشراهته في التهام الكتب والقراءة وانتقائيته ... كلها عناصر كانت تشكل لديه جوابا لرغبات روح تحب انتقاء الجيد من حقول وعيه ، وإزالة كل ما يعرقل تطور الروح الإنسانية .

لقد كان لباهي أسبابه الخاصة للمعاناة أكثر منا جميعا ، مما يقع بالجزائر . ويعلم أن الشعب الجزائري كان أقل تعلقا بالدين من شعبنا .

ومع ذلك ، فقد كان يكفي لهذا الرجل الذي يتمتع بسلطة معنوية وحظوة وهيبة ، أن يختفي في ظرف تاريخي

متميز بالتوتر والإنحسار ، لكي تشرع القوى الظلامية في التوجه بخطابها إلى الشعب ، حتى أصبح من الصعب إيقاف مسيرة التزوير أو استئصالها في أعماق الوعي الجمعي .

ولهذا السبب ، وبصفتي مناضلا في الحياة السياسية لبلدي ، أريد أن أختتم كلمتي هاته بتوجيه نداء من القلب إلى كل القوى السياسية التقدمية ، طالبا منها إخراج الرجال والمقدسات والأشخاص المتمتعين بسلطة كاريزماتية ونفوذ معنوي ، من دائرة الإنتقاد الملازمة للصمود السياسي، لأنه بهذه الشروط فقط ، يمكننا اجتناب الخوض في المجهول والسير بخطى حثيثة نحو الإنفتاح وسيادة الديمقراطية . كما أتمنى من كل قلبي ، تقوية هيبة الأحزاب السياسية ذات المصداقية والوطنية .

لقد رحل عنا باهي ، وترك لنا مشعل الصمود من أجل مجتمع أكثر عدالة وديمقراطية. فلنحرص على حمله وإبقائه متوهجا ●

محتويات الكتاب :

صفحة

- أعز الناس .. 4
- فولتير والمتنبي 10
- مقدمات خريف الغضب 19
- في صحراء باريس 50
- فضيحة الحياة 58
- المواطن العربي الأول 70
- نشيد للفرح .. 80
- تراث وحداثة 87
- استراحة المحارب .. 98
- أجراس العودة 103
- وشم آخر في ذاكرتنا 109
- «كيف حال الأمة ؟!» 115
- إبن الورد 120
- بطاقة السفر 125
- مشعل الصمود 130

● شعارنا الثقافي والإعلامي في محيط العمل والأسرة : «من أجل مجتمع مغربي قارئ».

● الأعداد السابقة من «سلسلة شراع» ، توجد تحت الطلب بوكالة شراع لخدمات الإعلام والتصال : (137 شارع ولي العهد ــ طنجة) .

● نعتذر عن تأجيل نشر «قسيمة الإشتراك السنوي» في هذه السلسلة ، الى شهر أكتوبر القادم .

● مندوب وكالة شراع بالرباط : المختار الزياني (النقابة الوطنية للصحافة المغربية ـ 27 شارع الأمير مولاي عبد الله) .

الثمن : 10 دراهم

● إصدارات «سلسلة شراع» :

ـ الكتاب الأول (مارس) : « حوار التواصل »

المهدي المنجرة

ـ الكتاب الثاني (أبريل) : « المغرب بأصوات متعددة »

محمد العربي المساري

ـ الكتاب الثالث (ماي) : « بخط اليد »

عبد الجبار السحيمي

ـ الكتاب الرابع (يونيو) : « قضايا راهنة »

مصطفى القرشاوي

ـ الكتاب الخامس (يوليوز) : « مساءلة الحداثة »

نجيب العوفي

ـ الكتاب السادس (غشت) : « باهي .. الصحافي والمناضل »

إعداد وكالة شراع

كتاب الشهر القادم من
« سلسلة شراع » :

تاريخ الزواج

لحسن العسبي

الطبع : دار النشر المغربية
الديما edima

التوزيع : الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة
سبريس sApress

SÉRIE "CHIRAA"

LIVRE MENSUEL PUBLIÉ CHAQUE MOIS
PAR L'AGENCE CHIRAA POUR SERVICES
D'INFORMATION ET COMMUNICATION

DIRECTEUR DE LA REDACTION : KHALID MECHBAL
COUVERTURE : AHMED BEN YESSEF

CENTRE DIRECTION
137, PRINCE HÉRITIER - TANGER
TEL : 94.39.27
94.42.12
FAX : 94.42.16

SIXIEME NUMERO : RABIA I 1417 - AOUT 1996

باهي .. الصحافي والمناضل

● « .. كان باهي من أركان رصيد حزبنا ، ومن الصور المشرفة لهويتنا الوحدوية والديمقراطية والإشتراكية والمغاربية والقومية ، كما كان باهي من الشهود على مصداقيتنا ومن الرموز التي نعتز ونفخر بها ، دون أن تمسسها بعض الأمراض الإجتماعية التي تسربت للأحزاب السياسية . فلقد كان بحق مناضلا طاهرا وعصاميا ، حرا ومستقيما ، أبيا وكريما ، عاش ومات فقيرا ، متحديا كل الإغراءات ، وكل مصاعب الحياة مهما كبرت . لم يثنه شيء عن الإستمرار بعزم وصلابة في المسيرة الوعرة التي اختارها منذ شبابه .. »

● « .. إن الأحزاب الأصيلة هي بمثابة كائنات حية ، وبالتالي معرضة للخلل والعطب ، وقابلة أيضا للعلاج . ويشهد التاريخ أن المناضل باهي محمد كان دائما وأبدا حريصا على المساهمة البناءة في تطوير حزبه وتدعيمه في مختلف الميادين والمستويات . وآخر أياديه البيضاء أنه قدم حياته قربانا في محاولة تطوير إعلام الحزب وتنميته ، وإننا لواثقون بأن تضحيته العظيمة لن تذهب سدى ، بفضل وعي وضمير عموم المناضلين الذين ساهم باهي في تكوينهم وتوجيههم .. »

● « .. لقد عرف باهي كيف ينسج - أكثر وأحسن من غيره - أواصر التضامن والتجارب والتعاطف بين الشعوب المغاربية والشعوب العربية ، وبين الشعبين المغربي والفرنسي من خلال قادتها ومفكريها ومناضليها ومبدعيها .. »

● « .. فمن نواكشط إلى بغداد ، لا أعتقد أنه يوجد مواطن عربي حظي بنفس التقدير الإجماعي ، وبنفس المحبة الإجماعية التي استطاع باهي أن يبلورها حول شخصيته ، لأنه كان من حيث لا يدري ، يسبي عقول وقلوب مخاطبيه بسبب أناقة خلقه ، وتلقائية تواضعه ، ولمعان ثقافته ، وسحر حديثه وابتسامته .. »

عبد الرحمن اليوسفي